# بروفايل ملغوم

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : بروفايل ملغوم
اسم المؤلف: سليمان خلوفي
التدقيق اللغوي: ريهام مصطفى
تصميم الغلاف: يوسف السيد
الإخراج الداخلي: عمر أسامة
رقم الإيداع: ٢٧١٩٦ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٨٤-٦

شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر
01020439639
massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

# بروفايل ملغوم

سليمان خلوفي

مَسَار
للنشر و التوزيع

# إهداء

إلى من قال في حقهما العلي العظيم: "ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما.. قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا."

إلى من خصهما الله عز وجل بهذا الإجلال والتقدير.

إلى والدي العزيزين.

إلى كل الإخوة وكل أفراد العائلة.

إلى زوجتي وابنتي.

إلى صديقي يحيى وعمر.

إلى كل الأصدقاء.

وإلى من أناروا درب العلم والمعرفة،

إلى كل أساتذتي الأجلاء.

إلى هؤلاء وأولئك أهدي ثمرة جهدي هذا...

# مقدمة

**بسم الله الرحمان الرحمين**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأبركان على المبعوث رحمة من الرحمن.

إن الحمد لله نحمد ونستعينه على ما أعطى: عقلا ففكّر ووهب، وقلبا فحنّ وكتب، ويقينا فتجاهل التّعب.

يومها وعلى أعتاب قرية صغيرة ما كنت أعلم حتى وجودها، قادني قطار القدر إلى رحابها ورحل، فتشابكت أفكاري وقررت من هول الصدمة مناجاة المفر، فترنّحت وبين المسالك تهت وسط نظرات من حسبتهم غجر، تهاديت فسقطت على مرأى منهم فأسندني وقار شيخ أغبر، رافقت كلماته فكانت بداية انتمائي للقدر.

يومها شمرت السواعد لمجابهة الأعداء، فراغ ورتابة وتغيير في الأجواء، واجهت الكل بمداد أسود شعّ سناء، كتبت وكتبت لقتل وقت كان بمثابة الداء، فكانت فصول الرواية أهم ما سنّه الأطباء.

الرواية هي بأحداث واقعية في قالب أدبي يواري الحقائق، يحفظ ماء وجه المحبين، يلبسهم زي التّنكر في أدوار طلائعية، يناديهم بأسماء غير أسمائهم، ويرسمهم بملامح غيرتها مستحضرات الأسلوب التعبيري، لا ليرتقي أحد لمصاف الظالم، ولا ليتدلّى الآخر لحضيض الذليل. هي الرواية تمخّضت فأنجبت الحرف بجسد أبيه وبقسمات أمه، فما أراد الأب أن يدنس صورة الأمّ، ليحبها الابن فيغدو يوما ما أرقى مما حلم به كاتبه.

# الفصل الأول

قائمة الأصدقاء قد لا تضم صديقا أحيانا، كلها أسماء مكدسة في حزمة ثوب لا تليق بمقام المكدسين، لكننا نأمل دائما أن تتمخض لتنجب صديقا..

في ليلة من ليال الشتاء الباردة، صقيع وزمهرير وشخير ومزيج من أصوات مصارعة الأبواب والنوافذ للريح العاتية، تمايلت الأجساد إلى مضاجعها ومضجعي يأبى إيوائي وأفكاريَ البالية، فانتصبت جالسا أطلب إيصالي بالشبكة العنكبوتية، كانت أول باب أطرقه، كيف لا وقد نما فيها أسلوب معاملتي للآخر خاصة الجنس اللطيف، فمن شخص خجول يلزمه ساعات تفكير طوال للحديث بعفوية إلى فتاة وإن كانت قريبة، غدوت لا أفكر بل أنطلق في سيل كلمات للتعرف على غريبة غابرة، كل ذلك كان من وراء حجاب، لكن كنت أؤمن أن القدر إن أراد سيجمعني بها فأنتزع الحجاب لأكشف ملابسات القضية بعد الاقتراب.

كنت ساعات أجول في دوريات للحصول على بروفايل مميز، فأضيف من أقنع جنود تهيآتي، وألتزم ركن الانتظار لساعات محدودة، فإن تأخر الرد تسارعت دقات الإحباط إلى عقل ملغوم، فألغي الإضافة في رد لا يشفي لكنه يحفظ ماء وجه مكلوم، كنت كلما قبلت طلبات الصداقة التي أبعثها أسارع في حفاوة للترحيب، ومعها جولة في صور وملفات الشخص الجديد، كنت أناقش وخيلتي شخصيته وأرسم من أولى الجولات والمحادثات مسار علاقتنا وزمنها وكذا إمكانية نجاحها، كنت أهوى تحليل الشخصيات من خلال محاورة أصحابها، كنت أنجح في الغالب فتصدق توقعاتي للمراد من استدراجي، كنت أدعي الغباء ساعات لمجارات من استذكى أمامي، كمن يمنح الفرصة لخائن فيقلده منصب العمدة أو الوالي.

كان الحياء دائما عنواني في البدايات، كنت أتجنب كثرة الكلام مع كل شخص بعيد، أكتفي بالإجابات التي تليها نقط الوقف، أكمل جل محادثاتي بالحمد لله.. ولا أجد غيرها لاتقاء شر فهم خاطئ أو حكم مسبق قد يفقدني رهان البقاء، لكن في الواقع الافتراضي

كانت محادثاتي يدفعها الجموح، كنت أنطلق أسأل بالتتابع وأجيب ساعات لاستعراض تنبؤاتي، لطالما كانت انطلاقاتي مستفزة في الغالب ومثيرة للمشاحنات، لكن كنت أطلقها وأرسم لمسار وصولها حسابات قد تبقيني في الريادة دون مشاكل، وأكبر مشكل قد أواجهه فقدان الطرف الآخر وفقدانه ليس مأساة بالنسبة لي، فكل من ألاقيهم وأستأنس بمحادثاتهم وأشاركهم أفراحهم وأحزانهم حتى، كنت أدرك أني قد أفقدهم في كبسة زر دون وداع أو سابق إنذار، لذا كنت أمارس في جل اللقاءات أسلوب الاستمتاع باللحظة، أصادق وأصدق فإن صدقت ادعاءاتهم تراكمت اللحظات الجميلة، وإن خاب ظني بهم حل خراب في اللقاءات وحل معه فتور قد يسوق الآخر إلى التسلل خلسة خارج سرب مسمى الأصدقاء.

لا زلت أذكر أشخاص ببصماتهم، لطالما جالوا وإيانا مسالك العالم الأزرق دون انتقاء، كانت لقاءاتنا صدفا لجمت فيها انطلاقاتي لا لشيء أعلمه لكن لرسم خطّته جنود التهيآت، كنت أحترم وجودهم، فأبادرهم في أول طلة لإشارة خضراء تعلن دخولهم لعالمي بالترحاب الذي تتفتح معه أسارير محياي، كنت أسعد بحواراتهم بسؤالهم بدعاباتهم، بكل شيء يجمعني بهم دون مسميات للعلاقة القائمة بيننا، كنت لا أحبذ تسمية العلاقات، لا أدري لماذا؟ لكن التسميات لطالما حملت معها فواتيرها، وما كنت أهوى الاستمتاع بمقابل. غاب من غاب وبقي من بقي، لا أنكر أني أفتقدهم ساعات ويحز في نفسي أنهم رحلوا دون وداع ودون مبررات، لكن سرعان ما أبتسم تفاؤلا، لأنهم أفضل حالا وأختلق لاختفائهم أعذارا حتى لا أفسد للود قضية.

لم يكن عالمي الأزرق مجرد متنفس أحلم فيه بلقاءات محتملة، أو بإطراءات مبتدعة، أو بنقاشات ترفعني إلى مقامات قد لا يقوى صوت أفكاري على بلوغها في واقعي البديل، كان الواقع الذي أحياه بالنسبة لي بديل، فكل ألوانه باهتة لا ترقى إلى طموحي العليل، لا أدري لماذا كنت أرى بذلة "الفيسبوك" تليق بقدّ أحلامي عكس العالم البديل، لطالما

استأنست بلقاء مسمى الأصدقاء. كانوا لا يتوانون عن السؤال عني ساعة أغيب، عن دعم طموحاتي ومدح معلقاتي ساعة النشر والتنقيب، عن الإنصات لهمومي ومشاكلي ساعة التعذيب، لم أكن أتفحص نواياهم لكن كان عنوان تراشق الكلمات الحفظ لا التسريب، لم نلتقي يوما لكن العيش على أمل اللقاء خير من لقاء للمسمى قد يعيب، كان من بينهم أصدقاء الطفولة وأصدقاء الدراسة، وأصدقاء على غرار سابقيهم، برزوا من بين ركام الزمن الجميل، ما عادوا كما كانوا لكن صورهم تترصد الابتسامة في خضم زحمة التركيب، كانت حاوية اللحظات المزركشة تفوح عطرا كالعنبر للتقريب، كنت ألجأ إليها أيام الضيق أستنشق بخورها علها تطرد نحس رياح الخريف، كانت عسلا تتذوق عند نهايته مرارة التغريب، كنت أجول ساعات أكتب أسماء لازلت أحفظها علي أبشّر بالترحيب، وأسماء غابت لازلت أحاول استرجاعها للملمة شمل سرب بعثره زمن غريب..

## الفصل الثاني

بعض الواجهات تعكس الصورة الحقيقية لدواخلنا أو على الأقل جزء منها، رغم أنّ الراجح طلاء على دلاء..

ساعة انتقائي "للبروفايلات" صادفتك بين الصفحات، لم تكوني مثيرة للانتباه كما الأخريات، لم تكوني ملطخة بمستحضرات التجميل كما العابثات، لم تكوني مغالية في البهرجة بصور مزدانة من برامج التعديل بلمسات، لم أجد لكي صورة حتى، لكن ما جذبني كانت كلمات نشرتها على صفحتك من خلطة اِبتسِم للعبرات، ثم صور توحي بلغة المقبلات للعين أن تتمتعي فما الغد إلا بداية أروع الحكايات.

كانت تلمع من صفحتك بساطة تشتهي تذوقها من المنبع مهما كان الثمن، تجولت بين أنقاض كلماتك ومنشوراتك وصورك دون ملل، كنت أحبذ أن ألقى بين الصور محياك حتى ألثم جبين أفكار قادتني إلى خصلتك الحرير، حاولت استكشاف نكهاتك لكن قوبلت بأبواب موصدة ألزمتني اللجوء لنهر خيالي فغرد خرير، وترددت أخشى أن ترفض قرباني بساطتك فيغدو حظي من لقائك أمرا عسير، عقدت العزم وفي خضم توقعاتي أرسلت طلبي ملتمسا ردا يسير، وانتظرت لساعات على أحرّ من الجمر في طابورك موقنا أن القائمة طويلة لكن الأمل خطّه العشير، ومن بين كل الطلبات قُبل طلبي لا أدري لماذا؟ لكن الانتظار على أبوابك أمر مرير.

يومها تفاءلت فانطلقت في رزانة أحمل باقة من كلمات الترحيب:

– أهلا وسهلا..

– مرحبا..

– كيف حالك سيدتي..؟

– بخير والحمد لله، وأنت؟

– الحمد لله.. هل من الممكن أن أتشرف بمعرفتك؟

– طبعا..

تحاورنا لساعات كنت أتلذذ فيها بكلماتك لحن وافق شدو التّعبير، تسامرنا تحت أضواء القمر وفي حضرة النّجوم، مجمع راق أثير، كنت أتمنّى دوامه فعفويّتك جذبت مخيلتي وعلى شط أحلامي كانت عبراتك جوادا يسير.

سألتك عن أصلك بمكر عارف فقد جُلت "بروفايلك" زقاقا زقاقا :

– من أي أغنية أنت؟

ابتسمت لغرابة السؤال لكنك سايرت:

– أموسيقار أنت أم شاعرا أم تريد اختبار نوتتي؟

– لا هذا ولا ذاك لكن أمثالك يُعزفون لا يُولدون..

أغرتك لغة تزفّك إلى قصيدة من الزمن الغابر فأمتعتي:

– أنا من حبيبة الكمان التي خطفت قلب نعمان..

عرفت أن انتماءك من مِلونة عالمي الأزرق من المدينة الزرقاء، عرفت أنك من مدينة "شفشاون" التي لطالما كانت للجمال رمز عطاء، فرسمت عيونك بلون الأدهم وطباعك بأنفة خيل شمّاء، وداعبت خصلات شعرك المتسلّلة خلسة من حجابك المفعم بالحياء، ومزجت بريشتي ألوان لونك الّذي مال لحور شقراء، وألبستك "الحايك" الأحمر المطّرز بخيوط الذهب فزادك ذوقي بهاء، كنت متأصّلا وما أروع الأصالة إن مزجت ببساطة أهلها في لغة بكماء.

بينما أنا غارق في عالمك وبلغت في وصفك كل مبلغ، جاءتني برقية منك تعزّز تنبّآتي، حين سألتك:

– ماذا تمتهنين أو في أي الجامعات تدرسين؟

– أنا ممرّضة متدربة، وهذه السّنة الأولى لي في المعهد..

أنت ممرّضة متدرّبة وأنا المريض، فسألتك من عطفك دواء، لقد قرأت منذ صغري أن الممرضة منبع الحنان وقدح الجمال فأكّدي أو انفي الإدّعاء، كل كلماتك يومها وكل أوراق هويتك تنذر بقادم أحلى فباشرت للأماكن إخلاء، وحجزت لنا مقعدين في الدّرجة الأولى فحوارنا ساعتها بدموع الفرح أبكى السّماء، رافقتك السّلامة وإلى اللقاء.ودّعتك على أمل اللّقاء، فملخّص لقاءنا الأول اتّسم بحزمة كلمات من زخم الانتقاء. غادرتِ المكان وجلست أنبش في "بروفايلك" لا أعلم لماذا لكنّه حبّ استطلاع، كان يغمرني ساعتها إحساس مفاده أنك زمرّد من خير البقاع، ألزمني البحثَ في وعاء حياتك الشّخصية فأقحمت في تفاصيلك بانصياع، لا أدري يومها لماذا أسلمت لك الجوارح وشيّعت أفكاري المحادثة الأولى دون انقطاع؟ لا أدري لماذا ألهمت العقل أنّك أهل للثّقة، فانحنى في إخضاع؟ لا أدري أهي مؤشّرات وهواجس حبّ من النّقرة الأولى، لاحت من بعيد بمروجك في تِنك الأصقاع؟ كلّها أسئلة طُرحت عند أعتابك، لكن لا مجيب فأبوابك غُلّقت، وطرقي ما وجد لحسّه أتباع، وجلّ ما تنشرينه غاية في الجمال لكن الجمال المعطر بالبساطة قد يكون فخا نصبته السّباع، تهت في نقلاتي بين كلماتك وتعليقاتك، وأصابني دوار ظننته في البداية استمتاع، لكن سرعان ما أغمضت، أرجو النّفاد من شراكك وقوعا أو إقلاع، وأجّلت أسئلتي لمحادثة قادمة، أطلب فيها الجواب الشّافي للإقناع، وأغلقت حسابي للقاء الصحب في العالم البديل هروبا من براثن أفكاري.. وللقاء قادم مع عالمك حفظت كلمات من عتادي، وما تبقّى من تساؤلاتي للمحادثة القادمة في متاع، وانطلقت أترنّح في مشيتي أحاول نفض ما بدا من استغرابي لانشغالي بك، فدندنت أغاني فأبت أُذناي لغيرك استماع، ورُحت أطلب النوم علّي أفارقك وأطردك من بالي وما نمت بعدك إلّا بصراع...

## الفصل الثالث

الحقائق تُدسّ بين الأحرف على هيئة جني قادر على اختيار كلماته الأنيقة بإتقان...

انتظرت لقاءك ساعات، ومرت السّاعات لتغدوا أيّاما دون أن تتغيّر الإشارة الرّمادية على خد "بروفايلك" المهجور، كنت كلّما دخلت أرجوا فرصة لإلقاء التّحيّة، أسأل عن حالك وأحوالك وعن أخبارك، كلّ جديد في حياتك، تمهيدا لفتح باب نبش الماضي الّذي كنت موقنا أنّه فصيح إن شاء الإفصاح، قمت بتحليل كلماتك ففسّختها من جلد ابتسامتك الممحوقة في تناسق مريب، كانت تداري كومة حزن في رقّتها فتجعل من ضحكاتك فاصلا كئيب، لا أدري كيف استدرجني كيانك؟ أم أنّ كياني يهوى قرمشة الأحزان فيفلح دائما في جولات التّنقيب، كنت دائما أهوى الخوض في غمار المسالك الوعرة، فأسقط بالتّتابع ولا تثنيني التجارب بالتّرهيب، كنت ساذجا في تعاملاتي فترسم لي العواطف آمالا مزهرة تنضح حنظلا عند المغيب، كنتِ الأمل الّذي تمنّيت أن يبقى مزهرا حتى المشيب.

يومها أطلّت من مواقعك إشارة خضراء أربكت مزاجي فعدّلت من جلستي، وللمرآة نظرةٌ خاطفة رتّبتُ هندامي ومسحت على شعري، كأنّي أمامك، أو سأقابلك في زقاق الحي على بعد ثواني، أسرعت مبادرا بالتّحيّة فأنا المبتلى المشتاق، وما كنتِ مبالية ولا معتبرة لوجودي فما أنا سوى عابر سيغيب سناه بعد إشراق، وما اشتياقي واهتمامي بك إلّا فضول لشخصيّة تحيى دون ترياق.

بادرتك قائلا:

– أهلا وسهلا لقد طال غيابك؟

أجبت في برود:

– أهلا بك، لقد انشغلت بالدّراسة، فبرنامجي حافل لا مجال فيه لإضاعة الوقت.

أحسست حينها أني لست إلا مضيعة للوقت، أدركت أنّه لا مكان لي في رزنامة مواعيدك، أدركت أنّ الحياة مستمرّة في حضرتي وغيابي، لا أعني لك شيء، انتابني شعور بالضّيق، لكن لِما الضّيق وتلك حقيقة لا مفرّ منها، فاستدركت صمتي بعبارة ردّ شافي قد يضمّد حوار قد ينتهي قبل بدئه.

– الله المعين ومتمنياتي لك بالتّوفيق إن شاء الله.

– شكرا ولك بالمثل.

– اللّهم آمين.

ساد في حضرتنا صمت رهيب، فقد ألزمتني المسّاة عزّة النّفس التّقهقر ومراقبة الحوار من بعيد، حرضتني أن لا ألمس شيء، وصفحتك واجهة تأرق راحة أناملي، تريدك لكن تنتظر منك التّرحيب، فهشّمت الحاجز أخيرا وألهمت المسّاة أنّك أهل للتّواضع فأطلقتِ سراح أناملي لتجيب.

– كيف حالكَ وساعات التكوين؟

فانطلقت أسرد حاله بعفوية أجبرتك التّعامل بالمثل، فشاركتني انشغالاتي، وعبّرت محاكاة لحالي فكانت العفويّة في السّرد أجمل من التّحليل.

حاولتُ نقل فيروس العفويّة لحياتك الخاصّة، فسألتك:

– كيف حال أهلك في التعامل والدعم وما جاورهما من روتين؟

أجبت باختصار:

– الحمد لله.

أدركت أنها تخفي كما أوظّفها في حواراتي الكثير. فسألتك:

– من أين الأصل وأين يعيش أهلك بالتفصيل؟

كان الرد صادما حين قلت:

– الوالدان انفصلا منذ الطفولة، ولكلّ حياته الشّخصيّة الّتي لا أدري عنها إلّا القليل.

تلعثمت في مواصلة الحوار، لكن استجمعت قواي اللّغويّة وواسيتك بكلمات أيقنت أنها لن تعني لك الكثير. وبعد برهة سألتك:

– من كان سندك بعد الفراق المبكر، وبعد الهجر الهجير؟

أجبت بلكنة طفولية:

– إنها "مي لاله" كانت من ربّاني ساعة التّرحيل.

– ماذا عن أبويك، ألا يسألان عن كَتب عن أحوالك منافسة للتّفضيل؟

أجبت بمرارة:

– بلى بين الحين والآخر مسافات، نتحدّث عبر الهاتف لدقائق معدودات في حوار جاف تسوده الشّكليّات ولغة من قاموس عملاء التّحرير.

– إذن مَن مِن الأهل كان الأقرب لقلبك المكسور؟

أجبت حسرة:

– إنه خالي، في الأيّام الخوالي كان النّقطة المضيئة في غرفتي قبل أن تلتهم نوره الحياة بانشغالاتها، فقلّت ساعات تواصلنا وانطفأت شمعة لقاءاتنا، اللهم في مناسبات يكون الكل فيها عن السّؤال معاتبا لا يعتذر أكثر ممّا يلوم.

صرخت في أعماقي معاتبا لأهل ليسوا أهلك إلا شكلا، ولظروف صادفتك دون النّاس فكنت ندّا، ولعواصف تلاطمت ثوب قلبك فكان صخرا، ولأيّام شائكة حضنتك قسرا، فما زعزعتْ من صمودك عودا، وما هشّمت من مسيرتك أوراقا، فهاهي ذي أوراقك لم تسقط حتى في فصل الخريف الّذي أسقط أوراقنا، عمدا يدّعي بإسقاطها أنها لم تعد تناسبنا، فوعدنا خيرا منها وما ألبسنا إلا ثوبا نقيضا، سيدتي أيقنت أنّك أقوى مني مضمونا، أيقنت أن طولك فارع تجاوز حدود قامتي فانحنيت لشموخك عفوا، وشيدت لمقامك صرحا، واستحييت مغالبة حرماني في ظل زخم حرمانك عنقودا، فرضيت بعد مغالاة في الهتاف قعودا، ومسحت دمعت رسمها القلب تأثّرا بتقصيري فعاتب شذوذا، فما البكاء بعدك إلا قطرات ندى أبت ارتشافها حتى الورود.

غيّرت موضوعا أحببت الخوض فيه، لكنّ إجاباتك غيّرت الرّغبة فاستسلمت التّوغل في استنطاقك حتّى لا أجرح مشاعرك، وما أظنها سالمة بل تعدى جرحها البتر فرسمَتْكِ جسدا لا روح فيه، لا أعني روحك الطّاهرة الّتي تمتلكينها دون غيرك، بل أعني روح التّأثر المطوّل لخدوش قد لا يليها أنين. فسألتك:

– كيف حال التّمريض؟ وكيف هي أيّام الدّراسة؟

أجبت بحرقة:

– التّمريض يحتاج ممرّضا يضمّد جراحه، فمن برنامج حافل مضن، إلى قوانين صارمة أجّجت الحوار بين حكومة متعنّتة وشباب جامح لا يهاب أزيز الثّورات.

– ماذا عن المنحة التي تتلقونها لقاء التكوين؟

أجبت بسخرية:

– أتقصد المحنة.. فكيف بدراهم معدودة أن تسدّ رمق مستلزمات الحياة في مدينة

صاخبة.. أتسد ثغر الكراء، أم تشبع بطن التّنقل بين المركز والأحياء، أم تعير كتبا يطالب بها الطّالب لتصيغ معاناته رواية تُمتع بعد المشقّة قرّاء.

ابتسمت محاكيا كلماتك لأسألك:

– وكيف تتصرّفين؟

أجبت بحزم:

– كنت أشتغل ساعات الفراغ في إعطاء دروس خصوصيّة لبعض الطلاب.

زاد إعجابي بوقوفك صامدة في وجهها دون إعياء، كنت جازما أنك ملاك رحمة غابت عنه الرّحمة ابتلاء، فزادته الهمّة في الكبوات عطاء، سرحت أرسم صورة لامرأة حديديّة كانت أنت، واللّوحة لطّختْها ألوان كلماتك الّتي استقاها صدقا قلبي في سخاء، لا أنكر جهلي بحقيقة فصول حياتك ولا بتضاريس أرضك، لكن رسمتك كما ادّعيتِ، وما ارتبتُ ولا احتطتُ من إمكانية خداعي، ولكنّ بساطتك أغمضت عيون عقلي، وصدقا لعبق كلماتك مال قلبي، فما درست احتمالات وقوعي في شراك نصبتِها على أعتاب تعاويذك، بل التهمت الطّعم دون تفكير، وغدوت من اهتماماتي ومع دقّات ساعتي عقربا إضافيا لاسمك يشير، أُعجبت وما صرّحت ففي إقبالي على سردك اعتراف بالتّشهير، فلعلّك الرّفيق الّذي طال انتظاره.. أم أن الشوق رسم ثوبك المرقّع حرير؟ لا أدري سوى أنني غالبت في مراقبتك من بعيد أرجو الإقحام في نواياك لكنّ الأمر عسير.

ودّعتك على أمل اللّقاء بعد ساعات أو حتى دقائق فهوسي بتفاصيل عيشك صار للبسمة ترياق، وحضوري على منصّاتك غيّب هُتافهم ولم يعد يَسمع إلا اسمك في الأعماق، فشيّعت منابر الصحب فصوت الوطن يناديني وكم وددت أن تكوني وطني دون العشّاق.

## الفصل الرابع

أطلق العنان للمحبين في سهولها الخضراء، يتيهون على بعد أميال ليلملم القدر القلوب كيفما شاء..

شارفت شمس موسم الحصاد على المغيب، لا أعلم أنضجت بواكري أم أن خمولي في تلقيحها قد يعيب، لا أدري أترضين بتقاسمها وإياي أم أن ظني في بساطتك قد يخيب، رافقتك على مر إزهارها وتفرعها إلى أن تدلت عروشها وستسقط عما قريب، ووعدتك تفقدها كل حين ووعدتني أن ترسميني على شط أحلامك لا كفزاعة بل كرقيب، فاسترسلت لقاءاتنا وعلى صحاف بيض سُنّت معاهداتنا فسلّمتك الورق العرفيّ كما سلّمتك الجوارح بالترتيب، وما عاد باليد حيلة لفقدانك لكنّي أشتمّ ريحا غريب، كأنّها غربة قد تعصف بنا في قادم مظلم أجهله لكنّني ملزم بالتّرحيب، أتوسّلك عذرا إن شاءت الأقدار طيشا وتمرّدا في السؤال فالزمي ركن ابتسامتك واتركيني أتلذّذ بالنّحيب، فما أريد أن أشقيك بعد الّذي عانيتِ من خالتي والنّسيب، بالغت في انتمائي لجنودك وما أظنّني سأعانق أحلامي إلا بعد عناء ومشيب.

يومها باعدت بيننا الأقدار وكبلتنا الظّروف أغلال، فانغمستِ في انشغالاتك عفوا فنسيتِ السؤال، وانغمستُ في السّؤال عنك ما استطعت ساعة بالتّرقب وأُخَر بالنّبش والتّمنّي المحال، انقضت أشهر لا جديد فيها وما أسمّي لقاءاتنا بين الفينة والأخرى إلّا تلويحا سجال، لقاءات كانت المحادثات فيها عاديّة.. فيها اللامبالاة احتيال، إلى أن انقضى الموسم الدراسي فرسم الوداع لمحادثتنا الأخيرة كلمات تدّعي الدّلال، وعلى وقعه نظمتُ أبياتا أثّرت فيك كما ادّعيت وبمشاعري لامست إقبال.

كتبت ليلة وداعك، ولازال وقع كلماتي موجعا كأنّ اللّيلة كانت بالأمس وكان الغناء موّال:

"الرحيل"

عزمت على الرّحيل..

متاع متناثر،

وأوراق لم أعرف لها سبيل..

مزاج معكّر،

تخفيه مستحضرات التّمثيل..

يومها لم يكن وداعي يهمّكِ كما صرّحت كلماتكِ الشّفّافة، كأنّ في إسدال ستائر عرضي المسرحي، نهاية حرصي وترقّبي وكثرة سؤالي الّذي أظنّه أقلق راحتك، المهمّ أنّي غادرتك علّ الأيام تشي بمكانتي الّتي لطالما أنكرت، لم أعرف لماذا كان الخوف يومها يتملّكني؟ لا أدري لماذا ليلتها زاد الخوف وخارت قواي النّفسيّة؟ أكنت أنت السّبب أم أن الضّغط قد زاد مع اقتراب رحيلي لعالم أجهله؟ لا أدري أتجمعنا الصّدف هناك أم أنّ حلمي بلقائك بلغ حُمقه؟ لا أدري أتذكرينني في غربتي أم أنّ ذاكرتك لا تسع متمنّياتي؟ كلها أسئلة راودتني ساعة وداعك فأعجزت تنبّآتي، المهمّ أني سأرحل عن أهل ما بررتهم، وعن صحب ما نصحتهم، وعن أعداء ما صالحتهم...

المهمّ أني سأرحل ليس كما ذكرتُ أنّي عازم بإرادتي، مدرك لفعلتي، متفائل بخطواتي نحو المجهول، لكن مكره محدّثك لا بطل.

ودعتك ليلتها وأنا ملزم بلملمة متاعي ساعات قبل الخلود للراحة، أسرعت في إطفائي حاسوبي، لأتوه في دربكة تعم غرفتي، شرعت في الترتيب مقدما أوراقي، بين شواهد ووثائق إدارية وأخرى تربوية، رصصت الكل في محفظة، ثم كدست في حقيبة ملابس راعيت في انتقاءها كل الظروف، وفي كيس كبير لملمة أغطية ورزما أعدتها أمي، دقائق وكل شيء صار جاهزا للرحيل.

خلدت للنوم أطلب ساعة راحة، ما إن عانقت وسادتي حتى تراقصت صورتك في

هيجان مع ما ينتظرني من مجهول، مشاعر ممحوقة في قالب غامض، بين فرحة لقائك في العالم الأزرق وألم فراقك ولأيام في عالمي الجديد، عالم لا أدري أي لون أهديه؟ أأختار اللون اللحظة أم أترك للصدفة في مرسمها إبداعا تسقيه؟ لا أعلم ما يخبئه القدر لي؟ لكن أستعطفه أن يجعل بين كل ما يعده فسحة للقائك، دقائق أرتشف فيها حلم انتقائك، لا أعلم ما تضمرين لكني معجب بكلماتك الأولى، أردت النوم لكن طيفك أبى الرحيل، ودقات ساعة الحائط تنذر بدنو أجلي وما أعلم كيف السبيل، حاولت طرد مخاوفي من فقدك حتى أنعم بحلم جميل، باءت جميع محاولاتي بالفشل، وفي غفلة مني جاءتني زقزقة العصافير، فتحت عيناي فإذا ضوء الفجر زادهما اتساعا، ثم رنة من منبهي أكدت أنها الساعة.

قمت فتوضأت ثم صلاة أطلت فيها السجود، لا رياء ولكن خوفا من منتظر لا محمود، أكثرت الدعاء وما أظن أني قد تضرعت كما فعلا، لمست في حركات وسكنات أبوي خوفا أكثر مما أعانيه، طمأنتهما ثم حاولت ابتلاع لقيمات لكن لا شهية، ثم أحكمت إغلاق المتاع، وحملته إلى مكان رفقة الصحب حددناه، عربة تنتظرنا هناك وهي أدرى وسائقها بما جهلناه، وصلت فإذا وفد بكّر وآخر في الطريق، ومتاع لا أظنها متحملة كمه، كأننا نازحون وعن رغد العيش راحلون.

تكدسنا ثم للسبيل طوينا، فإذا المباني تختفي وإذا قلاع فوق الجبال لأثرنا تقتفي، نمت من هول الصدمة، وما أيقظني إلا توقفنا لدقائق، فقد بدأت محطات التعيين، هذا هنا وآخر هناك ومسيرة ساعات مشيا تنتظر الجميع، كنا من بين آخر المحطات، ومن حسن حظنا هناك عربة أخرى للدوار ستنقلنا، حددنا مع السائق المكان فانتظرنا، ثم رجل يترجل من شبه عربة ليحاول مهاتفتنا، حدده حدسي ونحوه اتجهنا، سلام ثم حوار بسيط فتح بعده بابها الخلفي مرحبا، أكياس دقيق وتبن ودجاج وأناس ولا متسع لكلينا، ثم صعدنا وبالكاد جلسنا، سلام ثم نظرات ترحب عفوا وأخرى تفترس تفاصيلنا.

انطلقنا وسط ضوضاء المحرك وضجيج اللغة، نشاز يرغمنا الرقص، نتمايل بأجسادنا نحاول مجارات النغم دون نقص، ساعة ثم طريق غير معبدة زادت من حماس حركاتنا، وسقف يزفنا تبنا وسمادا طبيعيا ممحوقا، نصف ساعة سيرا توقفنا، عجبت أبهذا السرعة وصلنا؟ استوقفتنا الأيادي، وكلمات أكدت أننا للدوار ما بلغنا، ربع ساعة واصلنا بعدها المسير، كلما تقدمنا كلما زاد التمايل بشكل مثير، دربكة خلطت الحابل بالنابل وصار الفرز أمرا عسير، تغيرت مواقعنا وسقط متاعنا والغبار المتناثر غير ملامحنا، وملابس كنا نرتديها ما عادت تلاءمنا، وبعد ساعتين تقريبا توقفنا، ما استعجلنا النزول خشية الصدمة لكنهم بشرونا.

حاولنا جاهدين الوقوف فقد تصلبت أقدامنا، بدأنا ننفض غبارا كان حريا به أن ينفضنا، أخذنا متاعنا ووسط دهشة مستقبلينا زادت بالمكان رهبتنا، ووسط الحيرة اقتادنا شخص إلى غرفة بالمسجد وفيها سجنا.

كانت أيامي الأولى في الجبل سجنا أوسع بلا عميل، كنت أعد أيام العمل بالدقائق والساعات، لا ماء ولا كهرباء ولا عيش ولا حتى دليل، كنت مكبل الأفكار وحتى طيفك زاد خوفي فهجرك بعد سجني خير وسيل، لا أدري كيف أسرد وقائع نفيي وكيف أطلعك بعد اللقاء على التفاصيل؟ لا أظن أنك ستتعرفين من بين اللحية والشارب محياي؟ لا أظن أني أليق بمقامك؟ وإن كان الزهد شعارك فقد جاوزته بالقليل.

## الفصل الخامس

استلم طرد المشاعر من العيون، فالعيون صادقة لا تعرف للحروف ألوان...

عدت بعد شهر ونيّف من غربتي، كانت بمثابة عقد من الزّمن، أيام رسمت على محيّاي قسمات الكهولة، شارب ولحية ومواصفات من قبيل أشعث وأغبر.. وأخرى لم أذكرها ألقاب من عهد الطّفولة.

نزلت من بواخرهم إلى قارب النّجاة فهالني منظر المدينة، واستلمني أهلي بنظرات كلّها حيرة، وعلى أعتاب شفاههم سؤال كم لبثت؟ لكن أشفقوا حالي وأوصوني قبل العناق بحمّام الحي وشفرة حلاقة وقصّة رصينة، فاستيقظت بعد ذاك من كابوس منفاي، وصافحتهم عناقا دفنت بعده معانات التّرحال، وسامرتهم لساعات أروي فيها قصصا ظنّوها خيال، أحكي وأسرد على مسامعهم لقطات من مسلسلي هناك وما أسمع إلّا ضحكاتهم وقول محال، فتجنّبت بعدها عبارات كانت بالنّسبة لي محض احتيال، أنطّ متنقلا بين التّفاصيل، كأنّك تستعجلين لقائي بحضورك بين الفينة والأخرى في كلماتي فأتذرّع بالتّعب للاستغفال.

انتهزت فرصة انصراف البعض وانشغال الآخر عن جمعنا فانسللت محاولا ترتيب موعد لولوج عالمي الواقعي، بدت على وجهي ابتسامة حلوة وأنا أباشر مراسيم لقائي بعد عزلي من كرسيّ تقلّدته بحضورك، دخلت صفحتي واعتدلت في جلستي للوقوف على كل جديد طرأ في غيبتي، بدأت بمن أرسلوا يرجون صحبتي فصادقت على مقترحاتهم، علّهم معارف باعدتنا المسافات في العالم الافتراضيّ لتجمعنا جنبات العالم الواقعي، ثم قرأت رسائل من أقلقتهم غيبتي وكنت أرقبها بلهفة أجزم حضور رسائلك فيما راسلتي، أسرعت أقلّب وجوه مسمّى الأصدقاء ولا أحدا لرحيلك خبّرتي، فانطلقت أقلّب "البروفايلات" لأفجع أنك استقلتي..

أحسست ساعتها بخيبة المحموم، مريض أنا بك ولعشقي للشّقاء في حضنك غدا أنا ملموم، عاودت إرسال طلب الصّداقة بقلب مرهف وفكر ملغوم، وعلى جدران عالمي

الأزرق بكيتك بكاء المظلوم، ترقبت ردّك على مظلمتي بخاطر مكلوم، أتهجرين من ساند عثرتك بين التّخوم، أتدّعين البساطة وجرمك لبّد السّماء غيوم، انتظرت ظهورك لأرسل من بندقيّتي وابل العتاب فالزمي قفص المتّهم الملوم، ولا تعتذري فقلبي غافر خطاياك وإن غالبت جيش النجوم، عشقا وعنادا في عقل ما فتئ لكبوات عشقي يهديني كي لا أعوم..

مثلت أمام محكمتي بعد ساعات، فبادرتِ بالسّلام مع ابتسامات، كلّها عبارات كانت توحي خجلا.. أكّدت بعدها أن عزلي عن منصبي كان خطأ البدايات، وفورا صدّقتكِ فاعتذرتِ فسامحتُ بعد عتاب كلمات معدودات، وتجاذبنا أطراف الحديث لأهبَ لك جملة مما لقيته من معانات، فأشفقت حالي ونثرت على نعش أحزاني باقة كلمات، فسألتك عن أحوالك ساعة اغتربت، وإن تردّت لن تكون سوى مجرّد نفحات، كنت أتربّص لسان قلبك علّه يوحي أشْتاقَ محادثتي أم أنّها مجرّد تهيّآت؟ هل تركت أثرا؟ أم أنّ القدر عرّى قرباني ومحا من على شفرة العشق ما تبقّى من بصمات؟ كلّما كتبتِ لي كلّما أيقنت أنّ لي حيّزا في رفّ ذكرياتك الجميلة، فتنفرج أسارير محيّا غطّاه غبار الأزمات، تسامرنا تلك اللّيلة حتّى أثقل كاهلي نوم رسمته وعورة الطّرقات، فبادرتني بالسّلام، وما لظمأ شوقي رويت، لكن تعذّر استعطافك لارتباطك بحزمة التزامات، باشرت توديعك بطريقة المتشبث بشمعة يحاول استبقاء ضوئها ليقِيَه سواد الظّلمات، بادلتني الكلمات الجميلة لا أدري أمستقاة من قلب مشتاق أم مجرد مسايرة للترتيبات، ودّعتك على أمل اللّقاء، فطلبتُ النوم لكن خيال صورتك التي لم أراها حتى اللحظة شوش تفكيري، وبدأت أتخيل من مجمل مشاعري لك قسمات..

بعد توالي اللّقاءات ساعة على حاسوبي المتواضع الخجول، وأخرى في مقهى الأنترنيت المغول، كانت الحواجز تسقط تواليا ليعمّ أحاديثنا تغزّل معسول، وما عاد يفصلنا إلا ترتيبات لدخول قفص الاتهام المعمول..

يومها استفحل في أعماقي فيروس الفضول، وتمتمت جوارحي شكوكا من أصناف شتى خالفت ملامح المعقول، وبتّ ليلي محموما وحماي أقعدت أفكاري وغدا العقل مشلول، كيف أهديك باقة صدق وأنت تخاطبينني من وراء ألف باب مغلق مقفول، وتبتسمين وأنا لا أكاد أسمع همس شفتيك تحت نقاب سيف كلماتك المسلول، وعلى غير عادتي أقف أمامك مكبّل الأطراف ولطلب مشروع غيّبتِ لإقناعي جل الحلول، أأضرم النار في قشّ هواجسي أم أتريث فوجع الانتظار يشقي ولا يطول.

كنت أتحيّن الفرصة في كلّ لقاء ألتقيك فيه لأرسل طلبي في قالب مقبول، أحاول جاهدا دفعك للكلام بمقبلات من طبق أشبه بالمعسول، أكسّر حاجز الحشمة بدعابات قد لا يكون لها في الغالب مدلول، أرسم بدايات نقاش من مواضيع شتّى علّ قلبك للصّدق يقول، كلها محاولات قد تصيب ساعات وقد تخيب أخرى، المهم أنّي بادرت ولا يهمّ الإحباط بقدر ما يهمّ الوصول، فقد طاوعتني فكرا رغم اختلافنا في الطّرائق والحرف المعمول، وعلى روابي الفضفضة سامرتني أحداثا من مذكّراتك بصيغة المنقول، فكنت أبرز حدث شغلني عن دوريات التنقيب وعن مناجم قد تذرّ عسجدا لكن حدسي رجح أنك الجوهر المأمول.

يومها لاح بصيص أمل لمعانقة قسمات محيّا أدمنّا كلماته، محادثات وإغراءات وتلعثم كلماتنا صار أشبه بلكنة الحب في بداياته، لا أفقه كثيرا لغة الحب، ولربّما من فرط اشتهاء لذّته أرسمه على كل ممكن أصادفه، فكنتِ الممكن المعتِم في طيّاته، وكنت المستحيل ثنيه عن مخدر الحب الّذي سلبته منذ أولى المحاولات.

ترصّدت زلة من صمتك الذي صار يقلق راحتي، ويبعدني بعد خطوة باعا من حلوتي، فرسمتك من رصيد ألوان حرماني أميرتي، فكيف أجيب من شاركتهم بحضورك فرحتي، أألبس ثوب العزوبية الذي أهدتني وحدتي؟ كيف وقد بارك الكلّ بما فيهم

جوارحي للقلب خطبتي، خاطبتك يومها بلسان العاجز أن تتواضعي أمام بساطتي، فخاطبتك بعد الصّمت الذي تلى محادثتنا يومها مما تعودتهِ من أسئلتي :

– ماذا تفعلين وما الذي يشغلك عني؟

أجبت ولا أدري أعفوا أم بمكر مقصود قلت:

– لا شيء فقط أرتب بعض الصور التي التقطتها على رفوف ذاكرة حاسوبي المحمول.

تهلل وجهي الحزين بعد سماع كلمة صوري وأسرعت أستدرجك فسألت:

– متى التقطتها وأين؟

– في مناسبة عائلية ليست بالبعيدة.

انتفضت أبحث عن صيغة لا تقبل الرفض لطلبي وأنا الذي كنت أتحين هذه الفرصة وأرتّب لها. فسألت مستعطفا بلسان ماكر:

– ألا يمكن أن تشاركيني فرحتك؟

ساد الصّمت وسادت معه أفكار سلبيّة عن رفض محتمل لا محالة، لكن كسرت الحاجز وتراءت من على حاسوبي علامات تدل على أنك تكتبين، فزاد خوفي ماذا تكتب وأنا لم أطلب إلا صورتها، أهو رسالة رفض ممزوج بعتاب تزيد من حزني؟ أم أنّه اعتذار يحمل في طيّاته رفضا في باقة صداقة حييّة مزدانا ملموم، تشابكت تهيّآت التّشاؤم الّتي راكمتها، وغدا آخر شيء أتوقّعه قبول يبرئ قلبي المغروم.

بعد ثوان انتظاري التي مرت طويلا وصلني جوابك ولم يكن إلا كلمة قلت فيها:

– انتظر..

كانت بالنّسبة لي أحلى كلمة سمعتها على مرّ المحادثات، كأنّها إقرار بثقة متبادلة، تليها

ما رسمت لمسار علاقتنا من تكهّنات، كنت أنتظر وصول صورتك على أحرّ من الجمر، كأنهم بعد دقائق سيزفّونك إليّ دون سابق إنذار ودون مقدّمات، كأنك اللّحظة قلت أحبّك ولا كلمات، كأنّ عيوني ستعانقك ولا بعد لقائنا غوغاء مدح أو تغزّل فقط فتات لقطات، أنتظرك تحت شرفة بيتك الأزرق، وطيبك يأبى الإيمان بالمغالطات، أنتظرك وزمهرير شتاء هذا العام غدت مجرّد نسمات، خلعت معطفي فمعطفكِ ضمّنا حتى اندمجت كلماتنا صدقا لا مغالاة، أنتظر بزوغ محيّاك لينير ما حلّ بي من ظلمات، ها أنت قادمة وها أنا ذا واقف أعدّل ربطة عنقي وأستقيم في وقفتي، أريدك كما أنت موقن ولا أدري لم أنّك قمر بكل ما يحمله لحن مشاعري من مقامات...

توقّفت ساعات بيتيَ الهادئ، وعمّ جوّ حيّيَ صاخب بلحن الطّفولة كالهدوء المريب، أتليه عاصفة أم أنّك شمس تشرق لا تغيب؟ طال انتظارك كما يطول عادة انتظاري للّحظات المتقنة التّرتيب، وها أنت قادمة في فستانك الأبيض الرّقيق، ونور من على وجهك الطّفولي أوشك معه قلبي التّحليق، أتفحّص قسماتك بنظرات شاخصة كأنّي كفيف قد استعاد اللّحظة بصره للقاء العشيق، تسمّرت دقائق أحاكي ابتسامتك في الصورة بقلب مرهف يأبى لعقليَ التّصديق، يوقظه ليست إلا صورة، لكن شتان بين إعمال العقل والتّلذذ بالحبّ خلف قضبان الرّقيق، أكبّر الصورة وأتمتّع بأنغام التّفاصيل، وأتذوّق طعم اختياراتك بالتّدقيق، أطلتُ النّظر في مقلتيك لأقرأ من وراء الابتسامة حزنا عميق، أطلت النّظر حتى كدت أظلّ الطّريق.

فسألتكِ تغزّلا:

– أصورتك حقا؟

قلت في غرابة:

– نعم..

فانطلقت مدحا وتغزلا:

– وأين كنت تخبئين كل هذا الحسن والجمال؟ أجميلة أنت أم أنك تدعين الجمال؟ أعسل حرّ أنت أم من السّكر سرقت الدّلال؟

احمرت وجنتاك خجلا، واشتعلت مقلتاك بريقا، وغابت كلماتك، فأرسلتِ ابتسامة تشرح ما طال لغتك من إخلال. قلت بعدها :

–إنكِ غاية في الجمال..

فأجبت تواضعا:

– شكرا..

وبعد صمت حييٍّ أضفت:

– أمن الممكن أن ترسل صورتك؟

– طبعا، حالا وبكل سرور..

فرحت أنبش بين صوري، أنتقي الأحلى ولا أقول أنّي منك أحلى، ولم أكن يوما واثقا من إمكاناتي، كنت دائما أنتقص من قيمة الجمال، لا زهدا ولكن أخذا بمقولة المثل الشعبي المغربي :"حَتّى زِينْ مَا خْطَاتُ لُولُه". أي أن لكل جميل عيبه لا محالة. كان لكلّ منّا عيبه، فإن لم يكن ظاهرا على واجهات أسواره، فقد يكون خفيّا بين جنود أفكاره، وما خفي أعظم..

أرسلت لك يومها صورة من الأرشيف، لم يتغير الكثير، ولست ممّن يحبون التّغيير في المظهر أكثر منه في الجوهر، لا هذا ولا ذاك طاله تغيير بيّن، ما أجيده هو الوعد وما أفقه بعده وعيد...

تأمّلتِ صورتي دقائق لترسلي كلمات حييّة غازلت بها أفكاري.

- أنتَ أيضا غاية في الجمال فلا تتواضع..

- مهما حاولتُ فلن أبلغ من برجك إلا السلالم سيدتي..

توالت عبارات التّغزل والمدح، وغاصت بنا الكلمات إلى أعماق الإعجاب، وتساقطت على طريق محادثتنا أزهار التّقرب تزفنا ألقاب، فتسامرنا طويلا، ولم يفضّ مجمعنا إلا التزاماتك وشحن بطاريتي الّذي أغلق بعد التّوديع الباب..

## الفصل السادس

تلاقي الأرواح يكتمل باكتمال القمر، قمر العشاق بوجهيه، يبهر تارة رواده، ليفجعهم بعد كل نبضة حب...

توالت لقاءاتنا على صفحات العالم الأزرق، ونَظمت أشعارنا موّال، أصبحت لقاءاتنا مواعيدا لم تترك للصّدف مجال، فعلاقتنا اليوم حبلى، ينقصها فقط فحص بالأشعة يفضح المسمّى، ولا يهمّ الجنس في كل الأحوال، على ذوقي سأختار له تفاصيل الاستقبال، وبين ذراعيّ سأعانقه، وقبلة على خده للاستدلال، فباشري عفويتك فأنا كتاب مفتوح على مصراعيه، فقط أقحمي دون إعمال، وعلى الهوامش دوّني ملاحظات، ففصول حكايتي ليست مقدّسة، وتغيير المبادئ في حضرتك أمر حلال، وما الحبّ إلا قدر نخطّط لوقوعه، ونتغاضى عن كرامة متعجرفة نلجمها بإذلال، وإن كان الحب أعمى فأنا كفيف قبلك، ومن بعدك أبكم لا أقوال، سفينة بشراع مرقع تقتاده الريح لتتلاطمه الأهوال، لا أخشى أني ساذج عندما يتعلّق الأمر بالعواطف، بقدر ما أخشى فقدانك على مرأى من انتقادات العقّال، فالكلّ يحذّرني من وهميّة عالمي، وأنا استثناء أعقد على علاقتنا الآمال.

يومها تواعدنا وعلى رصيف حدائق عالمي التقينا، فاليوم وداع مفعم بالأحاسيس، اقتربت رحلة عودتي للدوار وأنا أدرى بها ينتظرني، وإن وصفت فوصفي لن يرقى لمستوى رسمك للأحداث، فاكتفيت بتفاصيل تبعدنا عن بعض لساعات بل لأيام، فلا شبكة للأنترنيت ولا شبكة للاتصال ولا حتى مواصلات، والقائمة طويلة للممنوعات في عالمي الجديد.

يومها اكتفيت بكلمات مواساة:

– صراحة أأسف لحالك لكن صبر جميل..

– الصبر أمر لزوم لن تجد لسواه وسيل..

– متى ستنطلق؟

– السابعة صباحا..

– لملمت أغراضك إذن؟

– لا.. كأني لا أريد الرحيل، أتركها دائما مبعثرة حتى آخر لحظة، لأسرع في الاستعداد دون الخوض في غمار التفكير في ما ينتظرني هناك..

– حاول التأقلم، واخلق وسائل لملأ وقتك بأمر مفيد..

– في كل محنة منحة أدركها لكن لا أحسنها..

– إذن لن نتواصل بعد اليوم لمدة تقارب الشهر؟

تتحدثين عن التواصل في مكر وأنت تدركين حقيقة عزلتي، أتطلبين رقم هاتفي في تلميح بحديثك هذا؟ أم أنك تحاولين استدراجي لأطلب أنا رقم هاتفك؟ المهم أن التواصل كان يهمني كما أنت، ولا حاجة لنا بمراوغة رغباتنا، فقط عفوية وجرأة تنزع النقاب عن اعترافاتنا، وبلغة الإيحاء أدرك أنك اعترفت.

– ممكن أن تتعدى الشهر.. ومن الممكن أن لا تتعدى يوم..

– كيف؟

– إذا تكرمت وأمددتني برقم هاتفك..

لا أعلم لماذا لم تتملكني رهبة الخوف من الرفض يومها، لا أدري لماذا كنت موقنا أنك من استدرجني لطلبي هذا، فسألتك رقمك الذي باشرت كتابته دون تردد.

فبادرتك تغزلا:

– أصوتك مفعم حنانا كما مقلتيك؟

– لا أعلم لكن الكل يقرّ بأنه كذاك..

– إذن لنرى.. أمن الممكن أن أطلبك الآن؟

– طبعا..

خرجت يومها من زخم أفكار العودة لذاك الوطن، لا أدري لما سميته وطن، طبعا لا عشقا في تفاصيله، بقدر ما هو واجب ملزم بتأدية عن حب لا عن ضجر، خرجت من بين أغراض المتناثرة حد الخبل، خرجت من أفكار الحزن بقسمات تشابكت حد العبث، خرجت لأسمع صوت من ألهمتني ابتسامة محت دموع الفراق وسقتني جرعة أمل، خرجت يومها لأحادثك فكان الحياء عنوان لقائنا الأول تحت ضوء القمر.

– أهلا..

– مرحبا..

– ها أنت ذا كما توقّعت رقيقة كما تفاصيل صورك..

– ألم أقل لك أن الكل يقر أن صوتي مفعم حنانا..

– من هم هؤلاء الذين يقرّون..

– الأهل والصّحب..

أجبت بسخرية متغزل:

– ومن سيشكر ويذكر محاسنك إن أخلفوا هم..

سألت بعصبيّة الغيرة:

– إذن أنت ترى أن ما قيل ليس إلا مدحا مزيّفا؟

– طبعا لا.. أنا أمازحك فقط، وما قيل لا يعني شيء أمام بحر محاسنك سيدتي..

ابتسمت لوقع انتصار أهديتك، ثم انتهت أولى المحادثات الصوتية بطعم أحلى من سابقاتها، ودعتني بكلمات مشجعة للصمود، وعيوني تريدك شخصا لا كلمات، فمتى نرتب موعدا في عالمي الافتراضي بذكريات لها في غربتي ألوذ؟

عدنا للعالم الأزرق لنتمم مراسيم الوداع، فتبادلنا عبارات الدعم زادا نستبقيه والمتاع، وكلمات معسولة أججت حرارة الشوق وألبست علاقتنا ثوب الحب ينقصه إقناع، ووعود سطرناها في معاهدة السؤال، وفي خزائن الحب سرا حفظناها بالإيداع، فإلى لقاء قريب أستودعك قلبي، فقد هجرني وفي أثرك خطى اتباع.

## الفصل السابع

تغزل ليلا كيفما تشاء، وقرر صباحا بعقل أنبت فكر الحلفاء...

يومها استيقظت باكرا بعد ليلة بت فيها محموما، أتقلّب أفكاري على وسادة طرّزتها الهموم، وكل ما أعانيه في كفة ولقاءك في كفة رجحت على العموم، أصبحت بلقائك أهذي، وفي كل مرسى لبوارجي مدفع من عقلي يلوم: أتحب قمرا وتتحاشى الممكن من النجوم؟ أتغرس أحلام في فياف العالم الأزرق، وتدعي في عز الشتاء جني الكروم؟ أتؤمن بتعاويذ الحب فلسفة تغنيك عن مسلمات العلوم؟ أتودع قلبك قلبا هو عينه مكلوم؟ أتصدق كل ما تقرأ وقد خبرت أنه فعل مذموم؟

مزيج من عتاب وتفاؤل تراشقه القلب والعقل في حضرتي، تعالت أصواتهما فرحل عن الوسادة نومي، وقمت أضع اللمسات الأخيرة على حقائبي، خليط من مؤونة غذائية وأغطية لاتقاء شر البرد، وكتب لاتقاء شر الفراغ، وبين هذا وذاك رقمك خير سند وخير متاع، توجهت وإياك إلى حافلة تنتظرني، صحبتك في مخيلتي أحاورك بقلب أبى فراقك، صعدنا والرفقة في جو يسوده التشاؤم وسخط على الأوضاع، أسايرهم لا أريد البتة زعزعة أحلامي على شطك لتسقط في جرف الخداع، ما أزال متسمرا مكاني، أنتظر منك إشارة للإقحام في أعماقك يصدني سور مناع، تناسيت تسمية ما يجمعنا، وخضت في شكاوى الصحب رباع، فغفوت على أنغام موسيقى شريط أفهم اللحن ولفهم الكلمات لا داع.

استيقظت على وقع هدوء الهدير الذي خرب مسامعنا، فتأكد لي أن وداع بعض الصحب قد حان، صافحتهم بكلمات شاخة ساندتهم، وأكملت وثلتي نطوي السبيل، بلغنا موضعا لا تتجرأ كل العربات الخوض في غماره، نزلت وصديقي وأنزلنا متاعا ليس باليسير، وهاتفنا بالأماني من له القدرة على إيصالنا للدوار، ليبشرنا أنه قادم بعد قليل، فانتظرنا ساعات حتى دنت الشمس من المغيب، فحضر قبل أن ييأس منا منظرنا المريب،

حُمّلنا والمتاع بضائع.. قُوبلنا بأياد باشرت بالترحيب، سلمنا وعلى أمل بلوغ الدوار في أمان تساءلنا فأجبنا بالنقيض.

وصلنا في ليلة ليلاء، برد شديد وعيون تترصدنا في علياء، وعلى شط دربكتي تذكرت وعدي فسارعت أطلب شبكة بيني وبينها مسير شقاء، فخبرتك بصعوبة أني بخير وحاولت لابتسامتك الإبقاء، ثم هاتفت الأسرة بعدك، فخالفت القاعدة في سبيل حب رسم لوجعي طريقا بلافتة أشّرت لعناء.

كنت كل يوم أرسم على محياك ابتسامة صباحية برسالة خطت بعناء، كنت أحقن الحب ترياقا ليحيى مرقد الحنان في فؤادك، وأتجرع في سبيل ذلك علقم الداء، توالت الأيام وتعالت الأحلام، وكان الحب يناشد علاقتنا ارتقاء، تناثرت الكلمات الملقّمة عشقا، وتعددت لحواراتنا المطوّلة أسماء، كنتِ بصيص أمل يتراءى من ظلمتي في علياء، كنتِ كل ليلة وعلى وسادة همي أستحضر معك مراسيم اللقاء، أتبضع لحلمنا زينته تأنقا، وأودعه من بين الأبراج تألقا، وأتفنن في ألوانه انتقاء، أعيب من حولي زرقا، وأريدك دون الخلق حمقا، وأتلذذ بالتودد لصقيعك صدقا لا إغراء، وعلى أعتاب لحنك أرقص علنا، لا تهمني كلمات العتاب ولا نظرات الاستهزاء..

انقضت أيام عزلتي آنذاك سريعا، كأنك صحبتني فهشّمتِ قضبان زنزانتي، كأن زياراتك التي مننت عليّ بها ملأت فراغ معاناتي، كانت إطلالاتك المزركشة تضفي على حياة البداوة التي كنت أعيشها رونقا خاصا، كنت ساعة تأتين بفستانك الحرير في رسالة رغم بساطة كلماتها إلا أن المعاني ترفع معنوياتي، كنت أنفرد بقراءة النص حتى لا يسترق لص الحكايات نظرة يرتوي بها على أنغامنا لحظات، كنت أعيد القراءة مرات ومرات حتى لا تفوتني من إطلالتك لمسات، كنت أستنشق طيبك من بين ثنايا حروفك، وأرتشف من حضن إحساسك رشفات، كانت رسائلك تبقيني مستيقظا على نمارق الحلم، فأتطلع

بعدها ألبوم صورك من على الشرفات، كأني اللحظة أصافحك، ألامس دفئ أناملك، أتتبع حركت أنفاسك القريبة، أداعب خصلات شعرك المتمرد على وشاحك الوردي، كأني أرتعش خوفا من رحيلك المحتمل في كل حين، أسابق الزمن لأمليك مدى تعلقي بك، فتمنعني مع كل حرف أنطقه عين تخشى تعكير صفو لقطة قد يفوتها فيها التلذذ بابتسامتك، بنظراتك الحيية التي تترصد غفلة مني لترمقني، بعذوبة عطرك الذي امتزج بريقي، فأبتلعه بصعوبة الظمآن للعقك..

كل ليلة أترصدك من على وسادتي، أتذكر إطلالتك بفستانك الحيي تتطايره الرياح كالراقص على أنغام صوتك المفعم حنان، أحفظ عن ظهر قلب كلمات أغانيك فأرددها لأنام، أدمنتها كقصص الأطفال التي تعودوا سماعها كل ليلة من أمهات اعتدن زرع الغرام، أدمنتك فلا أنام إلا بحبوب من عقارك، ولا أستيقظ إلا بأخرى، وعقارك إذا انقضى أجزم أنه صعب المنال، كلما رن هاتفي أسرع للقائك، كأن لا أحد يملك رقمي سواك، كأني وحيد لا أعرف ولا أنتمي لأحد إلاك، كأني فقدت الذاكرة وما استيقظت إلا على نظراتك في مستشفاك، كأنك سحرت عقلي فلا يتحدث إلا كلماتك، ولا يناقش إلا نظرياتك، ولا يفهم معنى إلا من قاموسك، ولا يصدق حقيقة إلا من فيهك، كأني أقحمت في بحر دنياك ولا أعرف للخروج سبيلا، وما أريد الخروج بل أخشى يوما من إطلاق سراحي.

## الفصل الثامن

الاعترافات تستدعي قبلا ترتيبات تبقي أناك ثابتا لا تزعزعه تقلبات جوية ولا تغريه مستحضرات..

يومها خطّطت لقضاء عطلتي في مدينة كنت أحببتها لأسباب، فقصدتها بعدما عانقتْ أسبابُ عشقي التّراب، كانت زيارة للضّرورة لا للتّبرك بالأنقاض، وفي الطّريق حادثتك كلمات أطلقت للحنين ألقاب، غادرت مودّعة فتعقّبتك متشبّثا بوشاحك المتدلّي من "بروفايلك" الخلّاب، قرأت ما فاتني من منشوراتك بالتّدقيق محلّلا ما وراء السّطور، وعلى أعتاب خبايا صورك ارتشفت محتوى الألغاز، وحقّقت في انتماءات المعلّقين، وترصّدت عيون المعجبين في تحقيق بامتياز، فوقع ناظري على مشكوك في أمره فألمّ بي نشاز، إلى أن حَللتِ بداري ومن بين التّرحاب كان يقبع قراري، سأسألك حين اللقاء وما أجد تفسيرا لإصراري، انتظرتك طويلا إلى أن تكرمتي..

بادرتك مرحّبا يدفعني سؤال:

– مرحبا..

– أهلا، هل وصلت؟

– نعم الحمد لله..

– الحمد لله على السلامة..

– الحمد لله، كيف كان يومك؟

– متعبة كالعادة..

– قرأت اليوم منشورك..

– عن أي منشور تتحدث؟

أجبتك بمكر، فقد نفد صبري..

– المنشور الذي علق عليه فلان...

ضحكت ساخرة وأجبت مستهزئة:

– كل منشوراتي يعلق عليها فلان..

زاد غيظي، واندلعت شرارة غيرتي، وما أدري لم؟ وما أنت إلا مسمّى صديق عزّز حضوره في الآونة الأخيرة بقلعتي، كيف أجيبك؟ كيف أستفسر عن حضور أشخاص في حياتك؟ ومن أكون حتّى أتدخّل في خصوصياتك؟ وما الصّفة الّتي أرتديها لأغار عليك؟ أسئلة كثيرة تبادرت إلى ذهني ساعتها، فاكتفيت بالصّمت حتّى لا أتجرّع مرارة استباق الأمور.

لاحظت صمتي فأجبت موضحة:

– عادي.. إنه زميل من أيام الدّراسة ليس إلا..

– حسنا..

تضاءلت كلماتي بعد تعقيبك، لم يكن كلامك ليبرئ ما أصابني، إلّم أقل أنه زادني حسرة، عرفت الحين أنّ لا حقّ لي في مشاعر لم يعقد قرانها بعد، لا ألومك بقدر ما ألوم سذاجة قلب متيّم بالبدايات العشقية وإن كانت وهمية، أؤمن بالحكايات المصورة وبالروايات الغرامية وبالأفلام السينمائية، أتناسى انتمائي، واقعي، لأسقط تواليا في فخاخ نصبتها لقلبي، ودّعتني بعد كلمات مقترة من أناملي، محسوبة النّقرات متعثّرة الخطوات، ودّعتني وأنا على وشك التّمرد لعلاقتنا المتبنّاة، رُحت بعد رحيلك أخطّط للقادم من لقاءاتنا، للغة حوارنا وقاموس كلماتنا، توعّدتك خفية بحرب سلاحها الجفاء، صحراء محادثات لا حياة فيها ولا شمس ولا حتى سماء، سأعرّي صفحاتي فكلماتي المنتقاة بعناية أزّمت اللّقاء، سأهجرك خلسة فما عاد لماء وجهي بعدك بقاء.

أخطّط لحرب باردة، وحصنك ثابت لا يعير لكلماتي انحناء، أتوعّدك وما أنت بمذنبة، بل هو مسّ من ريح هوجاء، تسارع "الأدرنلين" إلى نفسي الشرّيرة فألهمها القضاء.

وأنا أتفنّن في اختيار قذائفي لضرب حصونك هاتفتني، فأسرعت للهاتف أريدك لا أعرف بعدك انتماء، رأيت رقمك فسقطت كل ادّعاءاتي، رسمت ابتسامة على محياي وأجبتك:

– أهلا..

– مرحبا.. كيف حالك اللّحظة؟

– أحسن حالا والحمد لله..

سألت في مكر:

– لماذا لا يروقك تتبع فلان لأثر منشوراتي؟

سايرت مكرك فأجبتك بغير ما أردت:

– قطعا.. لكن كل ما أردت معرفته هو موقعه في حياتك؟

– ولماذا تريد أن تعرف موقعه؟

– فضولا ليس إلّا..

حوار ملتوي عن المقصود، جاءني بعده سؤالك على غير المتوقّع، كأني كنت المفترس فأصبحت بعده الطّريدة، ألجمتِ أفكاري، وألقيتِ بآمالي في هوّة جرف هار كنت أتخذه برجا أسُرّ به اعترافاتي، أوقدتِ فتيل متفجراتي، وتراجعتِ لتشهدي فاصل ألعاب نارية كنت أنوي مفاجأتك به، سألتني وما أمهلتني ساعات بل أيّاما أو شهورا لترتيب أفكاري، فسؤالك أطروحة تحتاج أعواما لتدارسها والوقوف عند خلاصتها، سألتني فتلعثمت

كلماتي ورحل التّعبير عن ثكنتي، وأنا الرّيشة التّي لطالما تلاعبت بالكلمات لترسم لك أبيات تروقك.

قلت في برود:

– وما موقعي أنا في حياتك؟

– ماذا؟

– لقد سمعتني..

كنت أنوي زعزعة جرأتك فتغيري سؤالك، كنت أنوي استغلال وقتك المستقطع قبل إعادتك للسّؤال، حتى أجد من بين ثناياه نصف إجابتي كما خُبّرت، لكن هيهات، حاولت استعطافك لكن ما أفقه ذاك وإن كنت في أمسّ الحاجة لعطفك، أجبت بكلمات أُعدَّها عقلي وما شاور فيها قلبي، كلمات مرتجلة ألقيتها للتخلص من ورطتي، أعلنتها إجابة مبهمة لا تسمن ولا تغني أمام إرادتك.

أجبت بدبلوماسية عاشق:

– صراحة أنت أقرب شخص إلى قلبي... اللّحظة لا أجد مسمّى للقرابة لكنها حقّا تعدت شرف الأخوة.

زمجرت ومن بين أنفاسك المتصاعدة نطقتي:

– إذن أنا أقرب أن أكون في موقع أختك ليس إلّا؟

حاولت كبح جماحك، واستدركت كلماتي للحلول دون ضياعك، فحاولت شرح كلماتي للوقوف عند حاجتك، لكن دون جدوى توقفت كلّ عقارب ساعتك عند كلمة "أختي"، فاعتذرت لكوني لم أعرف لقلبك العاشق سبيلا، فودعتني مطمئنة لكنّ قلبي

فطن للدغتي فأبى لوداعك التلويح، فهاتفتك بعد دقائق لتضميد جرح سببته دبلوماسية عقل تفنّن في التّلقيح، لكنّ لقاحه اليوم كان جرعة سمّ تميت الأحاسيس.

– أهلا..

– مرحبا.. أمازلت منزعجة من فشلي في التعبير؟

– طبعا..

– لكنّي اعتذرت، وفعلا ما قصدت أن أجرحك فتجاوزي عنّي سذاجة الاعتراف بحقيقة التّقرير..

– لا أدري لماذا لم أكن أرغب بأن أكون مجرّد أخت ليس إلّا..

– لكن أنت لست أختي، كفاني أخوات، وأمي لم تعد تطيق حتى الإنجاب، وما تحملتْ استثنائي إلا لأسباب..

ضحكت على وقع الدّعابة، فانفرجت أسارير فرحتي بلقائنا الأول على صفحة ميلاد مسمّى علاقتنا، فانطلقنا نتغازل شوقا لا تهمنا التّسميات، لتستغلّي الفرصة وترشقيني بكلمة كنت في أمسّ الحاجة إليها، لا أدري أنطقتها عفوا؟ أم أنّك رتبت لموعدها كما رتب القمر للقائنا الفاضح على أنواره السّاطعة ليلتها.

قلت بين أكوام الكلمات المعسولة:

– صراحة لا أدري ماذا فعلت لتعلق بتفكيري؟

– لكنك ما علقت به بالنسبة لي، بقدر ما أنت ملكته.. فلا يتذوّق عبارة إلا انتهت بطعمك الحلو، ولا يقصد حوارا إلا وظّف فيه توابلك، فأضحى لا ينتقي كلماته إلّا من قاموسك، فبالله عليك أسحر هذا؟ أم أنك خدّرتي؟

- لا أدري متى وكيف أحببتك؟

- أخيرا نطقتِ..

- لم أعر كلماتي اهتماما.. صراحة لقد نطقتها عفوا..

- المهمّ أنّك نطقتِ، وإن خانتني الكلمات ساعة سؤالك الذي فاجأني، إلا أنه اعتراف كان عالقا بين ثنايا خوفي من ضياعك ساعتها، ولذلك تلعثمت حينها..

تبادلنا ليلتها الاعترافات، تسامرنا مطولا إلى أن لفظتنا الشبكات، وعلى واقع جميل استقبلتني وسادتي، فرسمت على ثوبها أحلاما وأمنيات، وما نمت إلا على أعتاب أرشيف صورك ورسائلك المنتقاة، كلمات حفظتها عن ظهر قلب لكن في مطالعتها متعة حاكت اللمسات.

نمت ليلتها ملأ جفني، لأستيقظ على أعتاب فرحتي أتلمس موقعك بمحاذاتي، على الطرف الآخر من عالمي، أسرعت لهاتفي لأنعم بقبلة الصباح، صباحية عروس غادرت سريرها لأسباب، قرأت رسالتك وكلي اعتراض، لا أريد عنك فراقا مهما تعذرت الضرورة بأسباب، أجبتك بكلمات حلوة يتخللها عتاب، فجاءوني بهائدة الفطور كما جرت العادة، عريس غابت عروسه فكيف لي أن أشتهي غيرك، كيف لي أن أهنأ في بُعدك، قصدت الحمام لأداري دموع فرحتي، لم أرد يومها غسل وجهي حتى لا أستفيق من حلمي، كيف أصدق أنك اليوم تواضعت للحلول بدار أحلامي، كيف لي أن أدرك بحواسي العشقية أنك لكوخ أحلامي شاهدتي، مالي أحقر من إمكاناتي في حضرتك مولاتي، أهي عظمتك حجبت توقعاتي؟ أم أن حرماني أعمى متمنياتي؟

# الفصل التاسع

تهيم في الكلمات المزركشة بحلي الشغف لتتجرع عند كل تنهيدة ترياق الأمل...

يومها لم تعد تسد حاجتي منك كلمات المحادثات عبر الرسائل المكتوبة في مواقع التواصل الاجتماعي سيان، أقحمت في بحر كلماتك الممرغة في وعاء الحنان، أتلذذ بها لعقا.. لكن لا أشبع كأني أدمنتك من بعد سنوات حرمان، أطلبك بين الفينة والأخرى أحادثك عبر الهاتف إلى أن يطردني رصيد خوان، فأنقب عن غيره بين ذخائري لا تهمن الوسائل فبينها وبين غايتي شتان، إلى أن سألتني يومها وأنا الذي تعمدت لسؤالك النسيان.

– كيف سنتجرع في منفاك مرارة الغربة؟

– لا تذكريني بما سألقاه، واتركي لي حلاوة اللحظة لا أنوي تعكير صفوها بقادم بلا عنوان..

– صراحة أدمنت محادثتك، أدمنت صوتك لا أعلم كيف سأحيى دون جرعتك اليومية..

أردت إضفاء بعض الدعابة على جو بدأ يميل للحزن على الفراق القادم لا محالة:

– إذن إن كان يعجبك صوتي سأسجل لك أغنية ترقصين على أنغامها للاحتفال بغيابي، إن كان لا يعجبك إلا صوتي...

– أريدك أنت..

كلمات أوقدت جمرات الحنين، لا أعلم كيف أجيبك من وقع الطنين، بل لا أدري كيف ألاقيك في حياة أراها كمين، كمين أفكار رسم على خارطتي متاهة فقال هاك التمرين، وأنا التائه بين حقيقة ما أعيشه اللحظة أنداء أم توهم رنين، تريثت ورتبت ما تبقى من متاع أفكاري المصفوفة على درج عقل الرزين، وعقدت العزم لاختبار معدنك

في قادم الأيام أرخيص قصدك أم ثمين، شاورت فقررت المراقبة من شرفة العاشق حتى لا أخوض معركة قد يغدو فيها القلب هجين، حزمت حقائبي للسفر إليك بمخططات جردتها في صحيفة حذرت فيها القلب تلقين، انطلقت لأتناساها مكرا، فسذاجتي في الحب رسخت لحكايات الغرام الشقاء على مر السنين.

أجبتك بنبرة بدا فيها صوتي حزين، بأنفاس تكاد تلتقط لتنطق في ضيق:

– أريدك أكثر مما تدعين..

– وهل تحس أني لا أصدقك بل أدعي فقط؟

– كلا.. ما قصدت هذا أبدا، بل قصدت أن حاجتي إليك أكثر..

– وكيف عرفت أن حاجتك أكثر من حاجتي؟

– هو إحساس ليس إلا، لكن لطالما أحسست بالفتات من الأشياء فكيف لا أحس عظامها..

– لم أكن أعلم أني أحادث طبيبا نفسيا، أو محللا اجتماعيا؟

– ها أنت قد علمت اللحظة، فأنا كذاك وقلما تخيب تنبآتي..

– لا يهمني من تكون، وكيف تفكر، المهم أني أريد أن أكون معك صدقا لا ادعاء كما تقول..

– لا أصدق أني فزت بقلبك أنت..

– إذن افتخر بحبي فقد تواضعت لأحبك..

ابتسمت لدعابتك، فكل البنات تتغزل بكبريائها أمام من تحب، لكن لا أحسبك ككل البنات، فما التجارب التي خالطت حياتي إلا مطبات، وما أنوي بل ما أحبذ

انتمائك للمطبات، وإن كنت ممن يكرهون التعميم، فأنا ممن يخافون بعد الهدم الترميم، ففي كل مرة أتغاضى عن الانتماء حتى لا أعانق التوجس بدل التسليم، لطالما خبرت أني ساذج عندما يتعلق الأمر بالعاطفة، لكن ما جدوى نصح قلب رميم، أتلذذ بالشقاء في سبيل المشاعر الصادقة السيل، والمنبع فإما ظفرا بالسعادة وإما حرقا للهشيم، فأنا العاشق الولهان المتيم بالروايات الغرامية أبحث عن حقيقتها بين الخلق أغدقهم من قلب كريم، أصاحب أصدق أحب بصيغة الجمع لا تهمني الاستثناءات، ولا أتحقق في العطاء أغدو غشيم، لا أصدّق الأفعال ولا أدقّق في الأقوال ولا تهمني السلوكات، بل أقاض الأشخاص ولا أميز ساعة التقليم، هكذا أحيا بمبادئ قد لا تروق الجميع بما فيهم عقل هو أدرى بكيد الحريم.

جعلت من قصتنا رمزا منذ أول محادثة جمعت بيننا، كنت استثناء بما تحمله الكلمة من معنى، فمن ماضيك الملهم ألهمت حياتي معنى، ابتسامتك كانت بمثابة الترياق الذي أدفع به سقم الحزن في كل كبوة لأغنى، تغنيك بالحياة كان عبرة رسمت سبيل لقلبك النابض فأقنى، وعلى شطك كنت أطلب ودك في كل مد عله يجود بما الماضي أفنى، فسألتك في حيرة فما اعترافك للقلب المكلوم أسنى.

– أفعلا تحبينني؟

– هل لازال يخالجك شك في هذا؟

– لا أشك في صدق أقوالك، لكن صراحة لازال قلبي المكلوم لم يستوعب هذا.

– إذن اسأله زيارتي ليكشف حقيقتي.

– في أي البقاع تحطين؟ وفي أي القصور ترغدين؟

– أنا لا تغريني القصور، أنا أحب بساطة الأكواخ بنافذة لا يحجب ما وراءها سور.

- أنت زاهدة حد الفضول.

- لا بل بالعكس أنا متمرغة في نعيمها حد البتول.

- لماذا أحببتني إن كنت تحبين التمرغ حد البتول؟

- هو وصف ليس إلا أتريد التهرب مني؟ لن يكون لك ما تريد.

ابتسمت حد التباهي وسايرتك حد الجنون:

- إذن أنا مسجون؟

- لا بل أنت منفي عن حياتك، لتعيش حياتي.

- أنت حمقاء حد الجنون.

- أ اللحظة أدركت ذلك؟

- صراحة نعم.

- إذن فلتتعود حماقتي حتى لا تلوم نفسك على الارتباط بي.

تسامرنا ليلتها حتى اغرورقت كلماتنا من فيض الأشواق، فسألتك وداعا لا تنحني بعده الأعناق، شموخ لحب لا يضاهي ما تبثه الأبواق، نفترق ظاهرا لا ينتمي وصالنا لمسمى الفراق، نجتمع لنلتزم الصمت ففي حضرة الحب تنطق الأحاسيس لا تتلوى نفاق، توالت حواراتنا لتسموا بأحلامنا على ضفاف عشق رقراق، نتمنى وكان أحوج ما نتمناه لقاء يلتئم فيه الجرح يضمده عناق.

بدأت بتوالي محادثاتنا تفاصيل تجمعنا كما الكلمات، سنكون بصيغة الجسد الواحد نصوغ عبارات، كل المخططات القادمة تخصنا معا لا استثناءات، حتى كلمات التغزل تتدفق بطعم الجمع لا مفردات، كم تغريني لغة الانتماء والوفاء لمسمى لم تطأه بعد

إمضاءات، عقدنا قراننا على أعتاب العالم الأزرق فدونا اسمينا بين الزيجات، ما احتجنا شهودا فكلماتنا لم تُمحى من أرشيف محادثاتنا حتى الساعة كأنها معاهدات، وما احتجنا عرسا فكلانا لم يحفل قط بالبهجة الخداعة للمناسبات، أشعلنا أضواء حواسيبنا في ظلمة الليل الحالك كأنها شمعات، فرقصنا دون ضوضاء الأغاني الماجنة على ألحان صامتة للنظرات، انتهى حفل الولاء سريعا وكل لقاءاتنا خاطفة من شدة الظمأ تجود قطرات، ودعنا بعضنا بعضا من فيض صمتنا تفجرت عبارات، كأنها متمسكة بالبقاء كما قلوبنا السابحة في جو العبرات، عبرات تتدفق عند كل وداع كأنه آخر لقاء تسوقه لنا الشبكات.

على فراش النوم منعتني أحلام اليقظة من التمرغ في الملذات، فبقيت ليلي ساهرا أحاول ترتيب بيتنا المقفر الذي لا يحوي سوى طوبات، كيف السبيل لترصيصها؟ بل كيف السبيل لإتمام لوازم التشييد؟ وما توجد أساسات، نمت من شدة التفكير وما أظنك إلا نائمة ملأ جفنك لا تعنيك الترهات.

## الفصل العاشر

تتعدد الأماكن لكن الفصل يبقى واحدا، فصل أزهرت فيه الأمنيات فما نعشق إلا إياه...

استيقظت متغافلا ناقوس العقل مستمتعا بهيام القلب فيك، لا تعنيني الكيفية أعيش لحظة بلحظة حتى ألاقيك، فأنت أميرتي وقصدي شريف مشروع ما عاذ الله أن ألاهيك، من أول الأمر عقدت العزم أني بعد جس النبض سأوافيك، إلم يكن اليوم فغدا هي مسألة وقت فلا تدعي الشك يعتريك، ساذج أنا لكن لا أتوانى في الوفاء بعهودي فكيف إذا كان الحب من ينتقيك، تريثي فعلى مر السنين مرارة تتعقبني، أتمنى وإن لازمتني أن تستبقيك.

التقينا في الغد لا تثنينا أعذار، تذوقنا من وعاء عشقنا إفطار، وتعقبنا خطوات بعضنا البعض من على الشرفات، صارت تهمنا التفاصيل المملة فنسرد كيف قضينا اليوم لقطة لقطة، ودائما موعدنا الغسق ففيه يفيض للشعر أبيات، تسامرنا تلك الليلة حيث رتبنا فيها موعدا للزفاف، تحدثنا عن المكان الذي سنعيش فيه، عن الأماكن التي سنزورها بعد إنهاء مراسيم عرس كنا صراحة نزدريه، عن إمكانياتي وعن أحلامك حتى يتسنى لي وضعك أمام الأمر الواقع، واقع حياتي المتواضعة التي ما أظنها ترقى لتطلعاتك، لكن أأمن دائما بأن الحب يحيى من رحيق المعجزات، رسمنا لمسارنا خارطة حددنا فيها إحداثياتنا ومواقع قوتنا وضعفنا، كانت نقطة قوتنا الوحيدة هي مسمى الحب الذي يجمعنا، وهو ما أتوجس منه خيفة، لكن أضمر حتى لا أكون سببا في إعدام أحلامنا.

رحلت يومها من على شاشتي لتتركيني لهواية التدوين، كتبت في أسطر متمنياتي دون تلوين، ثم رتبتها في رف قصيدة خلدت قبلك بسنين، عدلتها عفوا لتليق بقدك الممشوق وصوتك الحنين، ففاضت بعد الخوض في تفاصيلك التي أهمتني المعرفة حد التلقين:

"حبيبتي"

ضعي قرب قلمك ممحاة

فلا أمان..

أنا وأنت،

وخطوط القلم سيان..

إن أحببتك،

فلا تنتظري مني إعلان..

قلب يعشق،

وعجز يصيب اللسان..

مالي في الحب فلسفة،

لأطلق لها العنان..

ودّعي ماضيك المرّ،

وعطّريه بريح النسيان..

فوّاح ريحك،

من شفشاون إلى وزان..

ساحر صوتك،

يضخ حنان..

برّاق لون مقلتيك،

غارت لأجله غزلان..

فصبر جميل،

علي أبرهن للعيان..

أنّكي مولاتي غدً لي،

والعرب للجولان..

فالريشة تبدع،

بوحي فنان..

والقلم يخط،

موقنا حقيقة الأمران..

قرأتها مرات حتى لا أخدش حفل الافتتاح، وفي كل قراءة ابتسامة ظفرا، لا أدري أبكلماتي أم بلقاء حبيبتي، المهم أنك ملكتني بكلماتي لا تهم الزخرفة فعيونك تحيكها كما تشتهي.

عدت أدراجي إلى مدينتي بعد أن دنا موعد فراق جديد، منفى الواجب يناديني، وحبيبة قلبي تناجيني، تسألني ألا أرحل عن روضها المزهر، فغدا ستذبل أزهاره وينضب ماءه وتهجره الأطيار، وغدا أتجرع في بُعدي عنه ألما أشد وطأة من سابقيه، لأني ظلمتك بدعوتك لخوض الغمار.

لست ممن توهنهم قساوة الأقدار، لكني ممن تمردوا على الطفولة فتزودوا هم الرجولة منذ نعومة الأعمار، لازلت أذكر سنوات الفأس والمعول التي رسمت تضاريس الخشونة على جسدي النحيل، لازلت أذكر تفاصيل كدي للنبش في منجم الدرهم لا للزينة بل للتحصيل، نشأت في عائلة محافظة ربت فيّ التفاني في العمل لا الاتكال على سواعد

العطاء، كنت أستحيي طلب درهم من والديّ، ساعتها كنت أُمنح دون طلب فأتّبع سياسة التقشف، حتى لا أمد يدي في الأيام العجاف، لم أحرم يوما من شيء، لكن كانت لي طموحات عجلت بالتخلي عن عالم الطفولة، لاكتشاف معالم عمران الرجال، انسلخت من موطني وشربت من كأس التمرد على واقعي.. على انتمائي.. على أخلاقيات.. حتى منبتي، فخرجت مرات عن السطر لكن عدت بعد أطوار، أهم ما اكتسبته القدرة على التحمل، والصمت كان خير كلمات أواجه بها غضب الإعصار.

كنت حازما في قراراتي، مستأسد إذا تعلق الأمر بكرامتي، غريب الأطوار ساعة سخطي، فلقيت انتقادات، وعلى أعتابي حيكت أحكام مسبقة صنفتني في دركات، لكن ما زعزعت مبادئي، وما عرجت مساري في الطرقات، إلى أن لقيتك فتغير كل شيء حتى القسمات، نذير شؤمي غدا اليوم جالب الحظ في نقرات.

يومها بدأت أحزم أمتعتي للرحيل، لا هم لي إلا فراقك وواقع المنفى العليل، كنت أنت الحدث الأبرز في رزنامة حياتي كنت أنت الدليل، تخلفت كل المواعيد وموعدك ثابت، يشغل مفكرة قلبي لا يهمه الوسيل، أأهجر عالمي لأحيى يوما عالمك كما خططتي قبل قليل، أم أذبل لفراقك كلما هجرتي شغفي الذليل.

ودعتك بكلمات أشد حزنا من سابقيها، فاليوم عشق يجمعنا، يسمينا، ينذرنا شقاء سَمينا، رافقتني إلى الباب بقلب دامع وملامح خرساء، راقبتك من زجاج السيارة الخلفي حتى توارت يدك الملوحة وبدأت فصول العقاب، امتزجت تنبآتي بوساوس عقلي المرتاب، وظننت بك سوء كلما تأخر السؤال وزاد ارتقاب، أبلغتك أني على مشارف منفاي على مشارف العذاب، واسيت بكلمات غابت فيها المقبلات والألقاب، غادرتني لألقى قدري وحيد ما وراء الجبال لا أهل ولا صحاب، غادرتني وأنا لا أعرف نواياك ولا ما نطقته من فوق القباب، غادرتني وأنا لم أتحقق بعد حقيقة ما وراء النقاب.

## الفصل الحادي عشر

غربة الأحبة أشدّ وطأ من غربة الوطن، فما الأوطان إلا قلوب جمّلت صحار عمّها الجفاء..

يومها وصلت الكوخ مرتب الحقائب مبعثر المزاج، سلمت على من لقيتهم بوجه شاحب وبابتسامة تداري احتجاج، وضعت أمتعتي وأغلقت الباب لتفادي وفود الحجاج، وأطرقت في ذهول الصدمة الأولى مستسلما لضجيج الأفكار السلبية في أفواج، كنت المحور.. دوامة تبتلعني لأغرق على مرأى من كلماتك في أمواج، وبرزخ يفصلني عنك أنت العذب الصافي وقدري الملح الأجاج، فكيف اللقاء واستحالة المزج مسلمة لا فيها ثغرة ولا يطالها اعوجاج، كيف أسلم لقلب عليل أبى لوم العقل وآثر العتمة على السراج، خارت قواي من تخبطي في ذكرك وزادتني مشقة الطريق ارتجاج، فسلمت الجسد بثوب سفره لفراش بغبرائه فكان النوم بمثابة انفراج.

كانت أيام بعدك محسوبة الخطوات، تدب على عاتقي تلزمني البكاء ساعة الذروة، أشتهيك وشهيتي لغيرك صارت من الندرة للعدم، تكبل شعر رأسي وتناثرت شعيرات لحيتي في محيا تناسيت شكله الأصلي، ما عدت أهتم لمظهري، فلست حاضرة هاهنا لتشهدي شرودي وتشردي، ما عدت أقتات إلا للوقوف على قدماي الهزيلتان، ما عدت أحيى إلا لمغادرة هذه القرية في صراح أجدك على باب سجني فاردة ذراعيك لمعانقتي، عناق في عالم افتراضي لا يسمن ولا يغني من عشق، عشق أظنني المريض الوحيد بدائه المتفشي بين أضلاعي، لا أظنك وإن عُديتي منه ما بلغ منك مبلغه مني، كانت تصلني كلماتك مثقلة بعتاب خفي يزيد من ضائقتي، حتى نبرة صوتك تساقطت من على جنباتها كلمات العشق التي لطالما نثرت، كأنك شهدت رداءة حالي في منفاي فتسلل الخوف لعزائمك، غاص صوتك ساعة مهاتفتي ولم يبق منك إلا القليل، وتضاءلت رسائلك لتزداد أعذارك مبررة لا مانعة لما تسلل من ريب لقلبك الفقير.

لازلت أذكر تفاصيل سردي لعشقك لصديقي الحكيم، لم يكن حكيما بأفعاله لكن

لطالما بث في تشاؤمي التفاؤل تلقين، كانت قصصه نابعة من حقائق لن ترضيك لكنها ترضين، لا تحسبيها نزعة الانتماء الجغرافي بقدر ما هي ثقافة تعيين، فقد عينته من بين الخلق حارسا لسرك أمين، كان ينازعني فيك ينتقد أفعالك ينذرني فعلك التالي في قالب مشين، أدحض تنبؤاته وأكذب انتقاداته وأهجر فضفضته من حين إلى حين، كان يستشيرني في علاقته آنذاك فأفتيه بعقل رزين، كان يسألني لماذا لا توظف عقلك هذا أمام طلقاتها، أم أن حضرتها تبخر رزانتك وقلبك بمحاذاتها يلين، كنت أقول بثقة المبصر لهلاكه: "الحب أعمى فأعطي حبيبتي سكين"، سواء دافعت عني أم طعنتني في ظهري فسأقر أن حقيقة المشهد ما هي إلا تمرين، توالت تنبؤاته لجرم قريب ومع تواليها زاد تشبثي بحبك الثمين، أكنت حقا أعمى أم أن التغاضي دور أتقمصه توددا ليُبقين، بجانبك قابعا وإلم تكوني وطنا طلبت اللجوء فربوعك غرست فيّ الحنين.

انقضت أيام جمعتني بالصديق الحميم، لا كهرباء ولا ماء في قريتي لكن اللمة بلسم رحيم، كان كثير الكلام حتى أني بحضوره كنت أستغني عن المذياع، كانت تروقني أحاديثها فبين الجد والهزل كان هناك خط رفيع، كان يتسم بعفوية أدركت بعدها أنها لا تخصني وحدي، لكن لازلت أحن إلى لقاءه بعدما تاه عن السؤال، أحن إليه فقد كان جزء من ماضيك الجميل، رحل لأتقاسم أخبارك مع مذكراتي وأبث عشقي لأوراقها في قالب عليل.

يومها وكباقي الأيام بدأته بابتسامة أحاول أن أبقيها مضيئة للقائك، بحثت في هاتفي عن ممول لسماع صوتك، بعثت برسالة لصديق بدأت بسلام لتنتهي بأرقام رصيد لأجلك، فخرجت أطوي السبيل في غربتي لأختلي بك، هاتفتك بابتسامة جاهدت النفس لاستجماعها فبادرتك مرحبا:

– أهلا وسهلا بأميرتي..

كان ردك شاحبا باردا:

- مرحبا..

تجاوزت برودك خالقا لك أعذارا فذاك من شيمي، وأنا الأحوج لمن يدرك أعذاري:

- كيف حالك حبيبتي؟

- بخير..

- لقد اشتقت إليك حد الجنون..

فاجأني صمت رهيب من جانبك، فتزعزع ثباتي، وهوى قلبي في كفي، فسألتك وأنا خائف من تأكيد شكي:

- ما خطبك؟

- هارون...

آه قد نطقت اسمي كاملا وما أسمعه منك إلا لخطر قادم بعده.. فأتممت حديثك في حزم:

- اسمعني جيد، صراحة أظن أننا تسرعنا في الخوض في علاقة لسنا أهل لها، أتمنى أن تفهمني، فما أقوله اللحظة خير مما سنلقاه في قادم هو أعتا من حاضرنا، لا أريد أن نتيه في كلمات معسولة قد تردي مشاعر أحدنا مقتولة، لا أريد أن نهيم في عالم افتراضي قد يعدم عقلنا عن واقعنا ليغدو فيه مشلول، فلننهي الأمر قبل تغلغلنا فيه حتى لا يتفشى المرض في حياتنا فلا نستطيع البرء منه أبدا...

أجبتك بفكر كان حقا مشلولا لا يزال يخيم عليه الذهول:

- حسنا كما تريدين..

– أتمنى أن تعذرني.. أتمنى حقا أن تفهمني..

– لك ما أردت..

– سأودعك اللحظة ولنبقى أصدقاء..

– حسنا رافقتك السلامة..

– إلى اللقاء..

– وداعا.

كانت الصدمة تغمرني، لا أعلم ما حدث ولا ما أجرمته حتى لقيت وسادتي ليلتها، أنهيت المكالمة بدماغ مربك وبنفس يملأها الغرور، حفظت كرامتي وما استطعت حفظك ساعة الفرار، فررت مني لا أعلم السبب بقدر ما استوعبت لوم العقل ساعة القرار، فهمت لماذا كنت بين الفينة والأخرى تتراجعين، فهمت شفرات أرسلتها علنا في الأيام الخوالي، كنت أتغاضى لكن اليوم ما عاد ينفع التغاضي، لا زلت حائرا أبحث بين أفعالي عن أسبابك، لا زلت أمجدك لا أنوي لثوبك الحرير الذي حِكْته لقوامك تدنيسا، رسمتك كما أشتهيك فتلطخت لوحتي جراء زخات كلماتك التي ألقيت، بت ليلتها محموما تتلاطمني كلماتك الأخيرة، ترجين أن أفهمك وكيف لا أفهمك وأنا الذي خبرتك أني أعشق تحليل السلوكات للوقوف على الأسباب، اليوم وقفت على سلوكاتك لأبرر أسبابك، اليوم لا ألومك ففارق شاسع بيننا لا يسمح البتة بلقائنا، وإن أعجزت تنبؤاتي أمام إصرار العشق فلن أصدقك، وُدعت وأنا بصدد زيارتك في العنوان الذي على خارطة حياتي رسمت، وُدعت وأنا محمل بهدايا عيد ميلادك الذي لحفله رتبت، وُدعت قبل اللقاء فتركتني على قارعة الطريق تائها عن أحلامي التي أفنيت، كنتِ الحلم الذي أفزعني بعده إيقاظك، كنت الجرم الذي شغلتني مراقبته عن كل الكواكب في مجرتي،

كنت الصورة التي أتجمل للقائها بابتسامة مرسومة القسمات، غفوت بعد صراع مع طيفك لا أدري متى لكن رحمة النوم خففت ما أجرمتِ.

يومها استيقظت على وقع طرق الباب، كنت أحسب أنك قدمت بحقائب السياحة تعتذرين، رواية قرأتها فرسخت أفكارا يعمها سراب، بقيت متلذذا بأمنياتي مستمتعا بدقات الطرق الخفيف، طرق أكد أنها أناملك الرقيقة ترسم لحنا جميلا، سرحت في جمال اللحن لا ترغب أذني مفارقته، كما لم أرغب في مفارقة دفء الفراش، إلى أن وصلني صوت الحشد ينشد تارة ويعدو أخرى على أعتاب الكوخ، تململت أفكاري واعتدلت بعد شرود لتدرك أني ملزم بالقيام، تذكرت أني بصدد احتجاج صامت من عقول فتية تنتظر معلمها المكسور، قفزت من فراشي لأرش قسماتي بماء الصقيع، فانطلقت إلى عملي متناسيا حياتي، تأخرت لكن لقاءهم كان هروبا منك لا وجود لطيفك بين ضحكاتهم، براءة قد تغضبك دقائق لترسم ابتسامة على محياك ساعات حد التحليق، تتناسى همومك لتشملك سعادة العفوية المتدفقة من عيونهم، تعمل في صمت مطرق لكن تتعلم في صخب اللغة العقيم، ابتليت بحبهم وما غضبي إلا في سبيلهم، أتذكر في ظله نصائح الوالد المزمجر ساعة التقاعس عن أداء الواجبات الدراسية، كنت في سنهم لا أفهم كلماته ولا أستوعب وعيده، حتى بلغني منه ما بلغ، فمرّرت رسائل النصح ساعات علها تصادف ساعة استيعاب، كنت أحاول قدر المستطاع التنصل من وزرتي لمشاركتهم همومهم، للوقوف على معاناتهم، للكشف عن مكامن الخلل في تصرفاتهم، لمراقبة تحركاتهم عن كتب، للاطلاع على ألوان لوحاتهم التي رسموا بها أحلامهم، للارتشاف من كؤوس ثقافاتهم وعاداتهم، كنت أعلم وأتعلم لغاتهم.. حكمهم.. موروثاتهم، كنت أأمن أن لكل شخص منا -بغض النظر عن سنه وانتماءاته ومستوياته ولغاته وشهاداته- علم ومعرفة محيطة بمختلف الأمور، علم يحتاج فقط ترتيبا وزخرفة في رفوف الأبجديات المتداولة في الكتب العلمية.

أنهيت حصتي كما بدأت بابتسامة المعهودة، وفي طريقي رافقتهم متخبطا في لغتهم،

كنت أحاول أن لا يفوتني من تفاصيلهم شيء حتى عند فراقهم، وعلى باب كوخي ودعتهم لأصادفك تفتحين لي، بقسمات ساخطة لقيتني بالتأنيب والعتاب، تذكرت هجرك فغصت في الأفكار السلبية، ذَبُلَتْ فور لقائك ابتسامتي التي رسمتها قسمات البراءة.

## الفصل الثاني عشر

الحب غريب لدرجة أنه يَحول شخصية بازدواجية المشاعر، ضيق في التنفس، وتلعثم، وصرخة دفينة.. هِبات قد تحظى بها في ساعات الذروة كما في ساعات الانكسار...

سُدّت شهيتي للحياة فخرّبت مخطّطي اليومي، كنت لا أطلب إلا النوم للهروب النسبي منك، لكن هيهات ما عاد يعرفني هو الآخر كأنما تآمر معك ضدّي، طبخت أكلا حتى لا أموت زهدا فيك، تناولت لقيمات لأعرج على مذكّرتي وقلمي فصحِبتهما إلى الجبل هروبا من عتمتك، وعلى وقع فراقك دوّنت قصيدة احتفاء بالمناسبة:

"بشراك الخبر"

اليوم أموت فبشراك الخبر..

قد تزهو الأيام بدوني،

ويحلو السّهر..

اصفرّت الحقول وذبلت،

بعدما زانها الأخضر..

سقطت أوراق،

في غير الفصل،

وتبعثر الثّمر..

كيف تدّعين الصِّدق،

في قولٍ أصر..

أصرّ التواري

خلف الشفاف فمكر..

ناديت بالحب الوفي

شجاعاً أشهر..

أشهر السيف في وجه

كل من لحبيبته تنكّر..

أسقطت أعناقا،

والعنق الرفيق غدر..

توسّلته جاثيا،

لكنه نفض غباري ومر..

مرّ أمامي

بخَطْو حبيٍّ ووقر..

مرّ وحيداً، بل تركني

وحيدا ولا مفر..

مضى مبتسما،

قد تخلص من ثمرة

أثقلت الشّجر..

مضى متناسيا،

لحظات الأنس،

حتى ساعات العسر..

سقطتُ في جدوله،

حتى الماء عافني فغمر..

غمر أنفاسي،

وعلى شطِّه قَبَر..

مسدّسٌ بطلقة واحدة،

في القلب فجّر..

قال عذرا،

أخطأت الهدف وموتك قدر..

قال ابتسم،

لألتقط لك آخر الصّور..

قول كان الطّعنة الآخر عشر..

وداعٌ قبل اللقاء،

فكان بالنسبة له فَخَر..

قصيدة لمست في كلماتها إبداعا أنساني جرمك، لا أزكي نفسي بقدر ما أمنحها فسحة للانتقام المعنوي، فألهمتها نثر سمها بعيد عن حصونك، مسالم أنا، لا أنوي حربا ولم أُكوّن لخوضها حتى في أشد كبواتي، فكيف أمارس الرذيلة مع من أحببته صدقا، فأكيده مكرا

تسوقه نزواتي، لا ولن أكرهك بل سامحتك، لكن للنفس طقوس لا أحرمها ممارستها خفية وبعيدا عن ناظريك، حتى لا أخسر نفسي توازيا مع خسارتك.

انقضى أسبوع على فراقك الغريب، حتى الفصل ما كان مواتيا لموعد إضرامك لسنوات التنقيب، إنه فصل يزفك عفوا على مرأى من نكباتك بالترحيب، لكن أُصبتُ بعمى الألوان بعدك لا تطربني ألحان ولا تغريني قصائد التعريب، دربكة تعم بيت أفكاري تغذيها لغة التأنيب، لا تكاد تمر لحظة في منفاي لا يحضرني فيها طيفك كأنه عليّ رقيب، أظل نهاري شارد الذهن وليلي متقلبا في فراشي أتسلى بالتعذيب، صامد جسدي النحيل لا يتهاوى في مشهد مهيب، ما خشيته في بعدك وهن قد تصلك تفاصيله بالتسريب، ما أخشاه زيارة مفاجئة يصعب معها لمراسيم لقاءك الترتيب، رغم جرمك كنت حالما بزيارة تخفق معها أنفاسي ساعة المشيب، أواسي بها دمعا تهاوى على خدود امحت ألوانها من شدة التثريب، أداعب بها مقلة عافت بعدك الحواري وركنت للنحيب، تجردت من مشاعري فالزهد بعدك حل من ناظري قريب، لا أعلم أسحر أصابني منذ لقائك أم مس منك مريب، وفي خضم همي الذي غدا أنت بت أسأل أتعانين كما أعاني؟ أم أن معاناتي كانت خياري وحدي فكلما مرةٍ أصلحتها تخيب، لا أنوي العودة لربوع مدينتي بحالي هذا حتى لا يعلم الكل أني فشلت فتتابعني عيون وأياد بالتلقيب، حاولت أن أشفى منك وما محاولاتي إلا كلمات تخرج سخطا لتتسلل حنينا بالتسريب.

انقضى أول أسابيع شهر أبريل، أكان اختيار الفراق في هذا الشهر مقصودا أم محاولة تضليل؟ أأردت فراقي قبل الاحتفال بعيد ميلادك؟ فتخلصت من همي الثقيل، أكنت مقالا لا يليق بمقامك؟ فرتبت وداعا قبل اللقاء فلا مصافحة ولا تقبيل، لا أدري ما كانت تدسه نواياك لكن كنت أعد الأيام لأزف لك الخبر في قالب جميل، أعددت العدة وضبطت منبه ساعتي مرات حتى لا تفوتني سفاسف التفاصيل، ودونت على مذكراتي قائمة بما تحبين واستعنت حتى بدليل، فاقتنيت يومها رواية قرأتها فكانت من أنار السبيل،

حفظتها بين أغلى متاعي في خزانة محكمة التكبيل، ثم عرجت على القائمة أشطب وأقصي وأساير حدسي في التبديل، كان حدثا مهما حتى ظننت أنه اللقاء يفوح عطره العليل.

غادرت فاستحالت المقتنيات هدايا حفل تأبين، كأنها دولاب حفيد نشتم ريحه كلما حضرتنا ذكرياته لتؤجج الحنين، ما كان بعد الفراق إلا أن أهديت هداياك لأشخاص لا يهم التعيين، تخلصت من بقاياك محاولا نسيانك لكن هيهات فما تدرين، فيوم عيد ميلادك جلست أحتفل وحدي بمتمنيات ما خالطتها نوايا انتقام دفين، أشعلت شمعة وقررت كتابة مراسيم الاحتفال في ثوبي الحزين:

"ميلاد وجعي"

عيد ميلاد سعيد

شبيهة المطر

الأمس أبسَمُ لذكركِ،

كتفتح الزَّهر

اليوم أبكي فراقك،

والذِّكرى الأمر

ودِدت أن أكون مهنئا،

بسطرٍ غير هذا السطر

لكن الحياة تجود،

بالحلو والمر قدر

كنا نناقش،

سويا وجهات النظر

لكن قلبك

بسهم سديدٍ قرَّر

عجيب حال الدنيا،

وكيف أعجب لحال البشر

شتان بين كلمات الماضِي،

وما نصّه الحَضَر

شتان بين لونكِ

الأبيض الناصع، والأخضر

لم أستسغ بعدُ

حقيقة الخبر

لماذا هطلت في غير فصلك،

فاستغرب الشّجر

إن ضاق حالي،

أتمنى أن يكون حالكِ أخير

إن مسّني ضرّ كالنسمة،

لأنّ الفؤاد لجرمكِ عذر

تهانين وما أنوي بكلماتي،

لفرحتك أن تعكّر

تهانين شغلت العقل والقلب،

فأدمنتُ السّهر

أتمنى لكِ التوفيق،

وقادما مزدَهر

أتمنى لكِ السعادة،

وحبا من فيض نهر

هديَّتك الآن،

في رفِّ الذكرى الأشهر

سيظلّ يبكيها القلب،

كلّما للهديّة نظَر

يومها لم يبق إلا أيام قلائل على العطلة، فاختليت بها لتدارس أنجع الحلول لتجاوز خيبتي، فرسمت خارطة طريق للهروب من طيفك، وقررت السفر بعيدا عن العالم الذي لقيتك فيه، بعيدا عن العالم الأزرق الذي كان عالمي، وبينما أنا أخط المدن التي ستضلل طيفك، فإذا بي أقرر زيارة مدينتك، متيم أنا بك حد الجنون، هروبا منك أسافر إليك تسوقني خيبتي للقاء قلبيَ المسجون، قضبانك تحركني كالمغناطيس تتلاعب بي حد

المنون، تجذبني ساعات لتحضنني وتروي العيون، وتنفر مني أياما لأشتاق غرابة عشقها المكنون.

حتى وأنا أتجرع العلقم للشفاء منك أدعوا للقائك، غريبة خلطتك السحرية التي قيدتني، انتفضت بعدها لأمحوها من على خارطتي، وقررت في جولتي التغاضي عن بنات صنفك، لا خوفا ولكن لتلتئم جراح هجرك، فلست ممن يعممون إلا أني ممن ينكسرون وأبدا لشظاياهم لا يلملمون، تستمر الحياة بعدك أعيشها كما كنت لكنك دونت اسمك في سجلات الذاكرة الأم.

## الفصل الثالث عشر

العودة بحقائب مكدّسة بالهدايا من أرض المهجر، لا يملأ الفراغ الذي أحدثته أيام النكسة مهما حاولت...

حزمت أمتعتي لأغادر قريتي، لأغادرك من أوسع أبواب الهجر الذي شيدت، لا أدري أكنت الضحية أم أنك لجراحك أضمرت؟ لا أعلم خبايا فعلك أكان تضحية أم أنك بي ضحيتي؟ هجرت ولأسباب هجرك داريت، لا ألومك فقد كان لي في رحيلك نصيب لازال يشفع لجرمك.

لم أشأ معانقة العالم الأزرق بحلوه ومره حتى لا أشهد ما دنست، لدى قررت التغاضي عن ريحك الفواح الذي ساد أجواء عالمي، زرت مدينتي لألثم جباها مرغتها الحياة هموما في سبيلي، كان لقاء مستعجلا اكتفيت فيه بالاطمئنان، ثم رحلة أخرى لمدينة أخرى، كان كل همي الفرار منك لا أدري كيف وإلى أين؟ لكن المهم أن لا ألقاك بين ثنايا خطوات رسمتها قسرا، كنت أهرب من تفاصيلك لأجدك للقلب ملكت وبين أركانه عششت، تجاوزتك لكن أنفاسك لازالت عالقة هاهنا تقطع بين الفينة والأخرى أنفاسي، لازلت أطرح تساؤلات عديدة عن صغائر الأمور التي قد تكون سببا لما أضرمت، كلها كانت تنتهي بنواح سؤال يناشدك وما ذنبي؟

وصلت أعتاب المدينة بابتسامة ممحوقة المشاعر، لقيت فيها أهلا طال غيابهم لكن ما غير شيء من طبائعهم، لازالت ابتسامتهم المعهودة تعلو محياهم عفوا عند كل لقاء، قضيت بمعيتهم أياما تناسيتك فيها، كنت تحضرينني كل حين لكن كنت أعجل بطردك بخلق أجواء لا تحبذينها، مضى شهر على فراقك، لازلت أتصفح في غفلة من كرامتي رسائلك، لازلت أرتشف من حوض صورك شربة لا يستسيغها عقلي اللوام، كنت كلما أردت الخلود للنوم أتصفح كتابك كأني أخشى امتحانا مفاجئا، أتقلب ساعات لأسترجع جملة من كلماتك التي أخلفت، في ظلمة الليل أخلو بمحادثات جمعتنا على ضوء القمر أطمئن على حالك، اليوم غاب القمر وغاب انتماءك لمسمى الأصدقاء، لكن ما كان

ذاك يثنيني عن زيارة بروفايلك الملغوم، أراقب بعيون دامعة تنقلاتك بين المعلقات، معلق أنا بك حد الهيام، أطمئن لحالك بقلب مكلوم، ليلي لا يمت بصلة لنهاري لكن كل منهما ذاق من كأسك المسموم، أستيقظ قبل الموعد بساعات حتى يتسنى لي إخفاء قسماتي بمستحضرات التجميل، لألقى الشمس بابتسامة مرسومة على قناع، لا أنافق لكن أخشى أن يفيض حزني على من ألاقيهم فأذنب بالتكرير.

مر أسبوع على محاولة نسيانك، يومها قررت الخروج رفقة الأهل لزيارة بعض معالم هذه المدينة، ووسط زخم الضحكات المسايرة رن هاتف تناسيت أني أملكه بعد رحيلك، وآخر ما كنت أتوقعه رسالة منك، أخرجت هاتفي من جيبي لأمحو رسالة ظننتها من شركة الاتصال ليس إلا، فتحتها لتتسع عيناي وتتلبد قسمات محياي على وقع أرقام هاتفك التي لا زلت أحفظها عن ظهر قلب، توقفت ليرتاب من أرافقهم، قرأت وعاودت كأني لا أصدق ما أقرأ، حاولت فهم ما تنوين ما تزعمين ومن أي البقاع للحكاية تسردين، تراقصت أفكار الخبث من عقلي لقلبي المكلوم، أفكار من قبيل انتصاري وإخضاعك لقوانيني، لكن سرعان ما تلاشت من هول الحنين لأحضانك.

كتبت يومها:

-... أنا آسفة لما بدر مني، غريبة هي أفعالي، مزاجية لا أستوعب ما أقدمت عليه إلا بعد فوات الأوان، كنت أمر بظروف قاهرة لم أحسبك فيها مساندي، لا تلمني فلك نصيب فيما حصل، فأنت ما بذلت أدنى جهد لتمنعني الرحيل، ما سألت ما سبب القرار ومن أين الخلل أو ما الذي أشعل الفتيل، فقط لوحت كما فعلت وتركتني بلا معيل، المهم الآن سامحني، صدقا أعتذر ولا تحتاج كما أظن لمعرفة صدقي دليل...

عاودت قراءة الرسالة للمرة الأخيرة وأجبت باختصار فتح الباب للتحليل:

- سامحتك من أول خطوة خطوتها بعد اتصالك الأخير...

أدخلت هاتفي في الجيب بعد صراع، لم أصدق بعد حقيقة الأمر وما ألهمتني القراءات العديدة لرسالتك اقتناع، لا يهم فعودك محمود مهما عددت الأسباب ومهما أبدعت في طياتها اختراع، شوق كان يهشم أحشائي.. ومع توالي الأيام وإن حاولت التغاضي تتفاقم الأوجاع، اليوم رغم ما أجرمت استقبلك الفؤاد فاردا جناحيه ما يخالج حفاوته خيط امتناع.

الكل لاحظ تغير حالي منذ رنة الهاتف، انفرجت أسارير قسماتي فصرت بين اللحظة والأخرى شخصا آخر، حتى من البائع الذي كنا نقبع ساعتها في دكانه استغرب من شدة سخاوتي، بدوت شخصا آخر، فتوالت أسئلة أحرجتني، عدّدت أعذارا ثم انطلقت أفكر فيك، وبين الفينة والأخرى أراقب هاتفي كأني تأخرت عن موعدك، لكن في الحقيقة ما تأخرت إلا رسائلك، مرت دقائق حسبتها ساعات، ثم رنة من هاتفي أربكتني، فبدا الأمر واضحا أن من يراسلني هو من أبدع ألوان محياي، جاءت رسالتك الأخيرة قصيرة لكنها شاملة ليس بعدها حديث، الصمت أرحم من مجاراتها فهي الجامع لما يضمره قلب عاشق مكلوم.

قلت في ثبات:

- اشتقت إليك...

ما أظنك إلا صادقة، فلطالما توهنني العواطف فأصدّق كلما تحيكه المشاعر في كلمات، قرأتها مرات فنشوة الاستمتاع بثمالة الحب لا تضاهيها نشوات، لا أظن أن للكلمات مهما أبدعت في تركيبها قدرة على وصف ما أعانيه، لا أنوي مساءلتك لكن لا أعرف كيف أجاريك بجراحي التي لازالت تدمي، لا أحقد ولا أكره لكن النفس وإن عوّدتها لابد أن تحن لنزعتها، أكابد في سبيل استبقائك، فالحنين للقائك لا يضاهي ما دفعك للعودة، لا أقلل من شأن حبك لي لكنك واقعية وما حلمي إلا ضرب من الخيال، سامحتك، لكن

لسعة النحل وإن كانت تنفع لكن تبعاتها تزرع خوفا يبقى تجاوزه أمرا محال.

كانت الجولة في بدايتها، كانت معالم المدينة تزدان جمالا تواليا بالتدريج، كان كل من يرافقني يذوب حبا فيها، فيمرغ عيونه في حيثيات الطبيعة بالتنقيب، كنت أنا في غفلة من هذا غارقا في تفاصيل العودة، معلقا بين هاتفي وكلماتك ورحيلك وأوجاعي، كنت شارد الذهن لا أجيب الرفقة إلا بعد إلحاح، كنت أدخر فيضا من الأسئلة لا أدري من أين أبدأ وفي أي السبل أسير، تريثت قبل الخوض في أسباب هجرك إلى حين الانتهاء من جولة ما عادت قبابها تغريني، إلى أن يسدل الليل ستاره فيضمنا في عالمي الأزرق كما خوالي الأيام، اكتفيت أثناء الجولة بالترحيب، أسبغت على رسائلي الهاتفية كلمات لا تغني ولا تسمن من جوع شوقي لمعانقة تفاصيلك، تناثرنا كلمات تغزل ممحوق بتوجس خلفته أيام هجرك.

خاطبتك ساعتها بنبرة المظلوم:

– آه لو تعلمين مقدار شوقي لمّا رحلتي..

تأخرت رسالتك فأدركت أنك لوقع جرمك لامست، استجمعت كلمات وتغاضيت عن اتهامي لتسترسلي حقيقة الأمر الذي لأجله عدت:

–... أعلم أني كنت قاسية، لكن القسوة طالتني بما فيه الكفاية، فإن كنت معاتبا فأهلا بعتابك، لكن لا أريد لنشوة استرجاعك أن تُدنّس بالنّبش في الجراح..

تعاطفت مع نصك فقرّرت تأجيل النّبش إلى مسرح العالم الأزرق، فسايرت النّشوة بتغزّل محسوب الأحرف والكلمات، بغموض المعنى ومواراة العبرات:

– حتى أنا اشتقت حقا لكن نختلف في القدر كما الدّرجات..

بعد دقائق جاءني اتصال منك، ففوجئت بزمانه، وسلطت علي الأضواء والنظرات،

زاد إحراجي فالكل يهمس أجب بابتسامة مكر وغمزات، ترددت إلى أن سكن أزيز هاتفي فخشيت أنك ستعاتبين، وزاد خوفي أن أكون فعلا قد دنّست نشوة استرجاع حبّ كله عَبرات، ثوان بعدها واتّصال آخر فتنفست الصّعداء، أجبت مسرعا فجاءني صوتك كالنسمة وسط حرّ الصّدمات:

– أهلا..

– مرحبا..

– اشتقت إلى صوتك الحنون..

تغشّاني صمت رهيب خشيتُ أن أُلام بعده، تراقصت أفكاري ساعتها بين الحنين لأحضان كلامك المعسول، وبين كبرياء نفس مزقتها معاتبة عقل مغلول، نفضت عنّي صراعا قد يفوّت علي الارتواء من حوض إقبالك لبلّ ريق أتعبه حرمان مهول، انتقيت من حزمة ارتباكي كلمات تعتبر من موقعي ردا مقبول:

– حتى أنا...

– لكنني أشتاقك أكثر مما تدّعي أنت..

– وما أدراك أني فقط أدّعي؟

– لا أعلم المهم أني اشتقت لتفاصيلك أكثر مما تظن..

– لن يصيب ظنك فيّ مهما حاولتِ.. لكن الوسط لا يسمح اللحظة بإشهار أسلحتي..

– فهمت سأودّعك مرغمة إذن.. إلى أن نلتقي كما الخوالي على ضوء القمر.. أحبّك.

تغير لون وجنتي لحظة سماعها، كأنها المرة الأولى، كأنك رسمت على خدي قبلة بريئة وسط هذا المجمع وما اكترثت، كأن بعدها شربة من عسل شفتيك المصفى، تغلغلت

في أعماقي سهام حبك لا تأبه أبدا بجرمك القريب، كأنه تجدد فانبثقت نبتته تشق أرض سخطي لا يثنيها عقل عنيد، اليوم هطلت فأعدت الحياة لصحراء كادت عنك تحيد، اليوم أحبك لا علم لي بما تضمرين فالعاطفة تفعل بي دوما ما تريد.

ودعنا بعضنا بعضا على أمل اللقاء، لقاء على أعتاب العالم الأزرق كما الأمس القريب. بعد إنهاء المكالمة، تغيرت قسمات وجهي، وانفرجت أسارير محياي، كما تغيرت لكنتي، وبت بعدك شخصا آخر، الكل يسألني بإلحاح من تكون، وبين افتخاري بحضورك في حياتي، وخوفي من أن أكون متعلقا بخيط وهم رفيع، تضاربت ردود أفعالي، فأنكرت وتغافلت وسايرت حتى تخلصت من فضولهم لأحيى فضولي، كيف أقنع العقل اللوام أنك لست مجرد وهم تعلقت بحباله المهترئة؟ كيف أتباهى بالحديث عنك؟ وأنت لست سوى أرقام وصور لم تتجاوز بعد شاشة حاسوبي المحمول؟ نفضت أفكارا بدأت تنغص علي فرحتي، وأسرعت الخطى حتى أحثهم على الإسراع، فشوقي لملامسة قسمات محياك من على شاشتي ألهب بعد السبات حماسي..

## الفصل الرابع عشر

العتاب ترتيب مسبق لليلة ظلماء، ستُرخي ستائرها على الحب، لينعم المحبّون بخلوة حييّة لا غول فيها...

تحينت بعد انسدال ستائر النهار فرصة الإنفراد بك، وفي غفلة منهم أشعلت حاسوبا ليس لي، ككت أزراره تقودني اللهفة لمعانقة لحن لكنتك الشمالي المعسول، أدخلت بيانات انتمائي لعالم منحني الحرية فمنحته الوفاء، منحني نسمة أنعشت حرماني فنسيت بين ثناياه من أكون، منحني فرصة لقائك حبيبتي فجعلته الواقع ولثمار أحلامي نصبته عرجون. حدقت في الشاشة أتتبع في ملل حركة تحميل الصفحة التي أبت إلا أن تلهب شوقي جنون، ثم فرج ورسالة تسبق وصولي تزفني بشرى من كلامك الموزون، أجبت قدر استطاعتي فرغم اشتياقي أريد أن ألقي إليك بثقل أسئلة حيرت قلبي الحنون، أما العقل فعافك وانهال عليّ لوما محكما دلائل من صلب القانون، انتزعت سهامه التي اخترقت كبريائي الممرغ في عشقك الملعون.

أجبتك بغير ما نطق به الفؤاد حتى أستدرج بوحك لما تلته الظنون:

– أهلا وسهلا.. كيف حالك؟

– الآن أحس أنني أحسن من ذي قبل.. وأنت كيف حالك حبيبي؟ أتدري كم اشتقتك؟

– الحمد لله على كل حال.. متعب لكن لعله خير..

– أما غفرت ذنبي بعد؟

– سامحتك بعد أن أغلقتُ الخط ساعة رحيلك..

– إذا ما بالك تعاملني بجفاء حبيبي؟

– صراحة أريد أن أعرف ما ذنبي؟ أكان لرحيلك سبب من صلبي؟

– لا ذنب لك حبيبي إلا أنك تركتني أرحل دونما عبرات تدل على أنك متشبث بي.. أذنبت أنا بظني أنك لن تكون لي، وأنّ ما نعيشه ليس إلا ضربا من الخيال، فقررت العدول عما بدأناه قبل أن يزيد هيامنا ببعضنا البعض..

– إذن فكرت وقررت هدم ما بنيناه سويا لتتركيني أحيى على أنقاضه؟ لا مشورة ولا توضيح ولا حتى إشارة توحي إلى ما تنوين فعله بمن أحبك؟

– حبيبي أنا أعلم أني مخطأة، فإن كان في سجنك عقاب يبقيني بمحاذاتك، فلتنفذه فإني اللحظة خاضعة لقانونك مستسلمة لقرارك.

– ليس من شيمي أن أذلّ كائن مهما كان جرمه فكيف أذلك حبيبتي، كيف أعاقبك وأنا أتفتح مرة أخرى بعد بزوغك، كيف أكبّلك وأنا مقيّد بحبالك.. لا أعاتبك اللحظة إلا لتعلمي مآلي بعد رحيلك، لا يهمني إن رثيت لحالي المهم أن تعلمي كيف عاشت الحيرة تسند الحزن وما لقيت جوابا لسؤالي..

– اشتقت لمناداتك حبيبتي، الحمد لله أني لازلت حبيبتك، اللحظة فقط استعدت بريق ابتسامتي، اللحظة وبعد نداء قلبك هذا تجدد عهد العشق الذي وقّعناه، حبيبي أتوسلك انفض عنك غبرة فراق ما كان سوى إعادة ترتيب للمواقع، الحين أيقنت أنك الأساس وما لي سند إلّاك، الآن تأكدت أننا سنحيى معا، لن يشوب اقترابنا ببعض سهام الظروف، ولن تثنينا حتى رماح همومها عن التفكير في الفراق. فلنتصافح.. عفو عند المقدرة حبيبي، ثم عهد على الوقوف في وجه كل عسرة..

أعجبتني كلماتك، بل أبهرني إبداعك في رسم خارطة طريق متناسقة الأركان يزفها التفاؤل، قادم ممشوق القد بعيون عسلية توقع كل من لمحها في غرامها الأبدي، سقطت على مرأى من كلماتك وأنا المتيم بحبك رغم ما أجرمت، أحبو لمعانقة قرارك لولا شوكة الكرامة التي انغرزت في قلب أدمته على مر السنين سذاجة عاطفتي، توقفت برهة عن

الكتابة أتوجع في صمت أتحاشى مسمعك، كأنك ماثلة أمامي أزين قسمات محياي بابتسامة البؤس التي لطالما خدعتك، ثم بشق الأنفس انتزعت شوكة الكبرياء لأكمل المحادثة أمتثل مرغما لما قرّرت، بعبارة محسوبة الخطوات أجبتك:

– فليكن كما أردتي حبيبتي...

ساعتها دوت زغاريد البسمات أرجاء العالم الأزرق كما الرنين، وعمت الأفراح جميع أنحاءه فاليوم استغفلت المحادثة التقنين، الكل يبارك كأنه حفل زفافنا المنتظر على مر السنين، فانطلقتِ كما العادة مبادرة بي تتغزلين، فما كان مني إلا أن سايرتك يشدني ألم جرمك لينتزعني منه الحنين.

يومها كانت مجرد محادثة عادية لم نر فيها بعضنا البعض، كان الهاجس لم الشمل وتضميد الجراح، رغم أن ثغر جرحي أبى الالتئام، إلا أني تحاملت في سبيلك حبيبتي، كيف لا أتحامل وقد أفضتي بمجمل معاناتك منذ البداية، كيف أرثي حالي لفراقك ساعة وأنت من فارقك الكل دهرا، لازلت أحبك مهما صنعت فما صنعت لا يساوي شيء أمام ما قاسيت، حبيبتي وإن غادرتني اليوم تمردا فعفوي سبق جرمك، ليس منّة ولا تصنّعا بل هي حقيقة لن تستوعبها العقول البشرية، سأغفر زلاتك لأني أحببتك حقا، سأغفر لأنها أخلاقي تعاف ثقافة الانتقام، لا تعرف سبيلا للتعامل بالمثل مع باقي الخلق فكيف وأنت حبيبتي..

ودعنا ليلتها بعضنا بعضا على أمل اللقاء، تسامرنا طويلا حتى ساعات الصباح الأولى بعبارات الحب نَهَبُها سخاء، ولولا عِلمي بأنك ملزمة ببرنامج تكوين مزدحم المواعيد ما عجلت بالاستفتاء، أرغمتك مجبرا بلكنة القائد على النوم وقلبي متشبث بأهدابك للإبقاء، رحلتِ كما العادة لكن طيفك ما فارق يوما مخيلتي قابع هاهنا في كنف الوفاء، وبعد خروجك من معالم العالم الأزرق، بقيت أراجع نص محادثاتنا بلحن قارب

الغناء، وبين كلماتك أصادف صورك لأقف على مشارف أعلامها بشغف العشق الأعمى أدقق في تفاصيلك كمواطن معتز بالانتماء.

نمت ملأ جفني حتى الظهيرة، وكان أول ما تمتمت به اسمك الذي قادني دون هوادة لمعانقة طيفك، ثم ابتسامة أحسست بعدها أن الحياة مبتسمة لي، تأملت في عودتك دقائق فأبى التفكير إطلاق سراحي لولا مناداتهم لي. استيقظت لألملم فراش نومي وأنفض من فراش أفكاري، لازلت بعيدة بعد قهوتي من دقائق تسويفي، لا زلت لا أملك حتى جهازا يصلني بالعالم الذي جمعنا، لازلت أؤمن أنك قريبة قرب النافذة المقابلة التي أراقبها عل شمسك تشرق منها.

قصدت الصنبور عله يغسل بقايا خيبتي من شمسك التي لم تطل من مشرقها، ثم فطور رفقة الأهل تجاذبنا خلاله أطراف الحديث الذي كنت خلاله الغائب الحاضر، ثم استغفلت حضوري بينهم لمعانقة عالم يجمعنا، فطلبت ود شبكة تشابكت معها أتراحي قبل أفراحي، أسترق النظر كأني لا أريد لمتطفل أن يعكر صفوة خلوتنا، أحسب دورات تتسارع على الحاسوب منذرة بقرب اتصالي بك، لكنها بطيئة أمام لهفتي للقائك، ثم انتظار آخر على أبواب القائمة التي نصبت نفسها أهلا لي داخل معالم بيتي الأزرق، تتلاطمني أخبار وملصقات وصور وتعليقات لا يهمني أمرها لأغوص بحثا عنك، ثم بعد عناء أستبشر خيرا بإطلالتك في فستانك الأخضر الناصع، لون يحاكي الطبيعة الخلابة التي تنفرج معها أساريرك كلما أمعنت النظر في عالمها الساحر، فتحت نافذة المحادثة لتستقبلني رسالة مستعجلة من موقعك هناك:

- أهلا وسهلا حبيبي...

- أهلا ومرحبا كيف حالك حبيبتي؟

- الحمد لله وأنت حبيبي كيف كان صباحك من دوني؟

– الحمد لله كان شاحبا، لكن الحال تماثل للشفاء بحضورك طبيبتي..

– أتدري اشتقت كلامك المعسول، اشتقت تفاصيلك الدقيقة حتى أني أدمنتك، لا أعلم أسحر ألمّ بي أم أنك استحوذت على "شيفرات" قلبي، حتى حالي تغير فبدا واضحا لزميلاتي أني مصابة بداء السعادة الخفي منبعها الواضحة تقاسيمها على محيّاي، سألتني البارحة صديقتي:

– ما خطبك؟ ما سر كل هذه البسمات التي تزفك؟

وبعد إلحاح منها خبرتها عن عودتك وهي التي تعلم من تكون، أتباهى بك حبيبي بين صديقاتي، أعلم أنها خصلة في جميع بنات جنسي، أن تتباهى إحداهن بارتباطها بحبيب متميز حتى تفقأ عيون حسّادها، حتى ترتقي درجات في سلم تصنيفها، لكني لست مثلهن، أنا غير بنات جنسي كما كنت تقول لي على مر المحادثات التي جمعتنا، أنا ما أتباهى بك إلا لتعزيز بساطة حلمي، إلا لدحض فرضياتهم في الارتقاء بارتباطهم بشخصيات متميزة، رتب تمنح فيها الطرف الآخر مرتبة أدنى في خرابة الحب المزيف الذي يجمعهما، لا أقلل طبعا من تميزك حبيبي، لكن لا أستطيع العزل بيني وبينك في كنف العلاقة التي تجمعنا، فكيف السبيل إلى وضع ترتيب يقلد أحدنا منصب الزعامة والآخر منصب التبعية، لا يهمني إن شاطرتني الفكرة لكن هي قناعاتي من الصعب زعزعة استقرارها، المهم من هذا الخطاب كله أني أحبك وكفى، أتمنى أن تلف هذه الكلمة قلبك الأبيض الناصع لألوّنه بألواني الوردية..

قرأت وأمعنت بقراءات العالم السبع التي أدعي أني أجيدها نصك، تعاملت مع كلماتك بمنطق حلوى الأعياد المتقنة الزخرفة، قبل التطاول على الطعم أمهلت قلبي الذي طالما اشتهاك فسحة لتمتيع ناظريه بروعة قدّك.

لازلت اللحظة أترصد طيفك الزاهي في سكناتي وحركاتي، حالة يجسدها مشهد طفل

أشقر اللون لا يشوب براءته نجس، يقف في استراحته بثوبه الذي أبلاه واقعه المرير، أمام زجاج متجر راق يبتسم لحلوى أعياد الميلاد حبا واشتهاء، فتبادله البسمة شفقة وازدراء.

## الفصل الخامس عشر

المواعيد المرتبة بتنظيم متناه التنسيق في التفاصيل قلّما تحمل مشاعر صادقة، هي وحدها الصدف تترك للعفوية حقيقة الكلم..

كيف السبيل لمعانقة عنانك في سماء أحلامك المتلألئة بعيدا عن بساطتي، متشبثا بخيط رفيع أطلب الظفر بودك، فتطلبين في علياءك مشهد اشرئباب أحلامي الصغيرة لبلوغك، حبيبتي لقد جمعنا خطأ تقدير مني، لترقى الغلطة إلى جرم متطرف أبى التصديق بأن ما نصْبوا لبلوغه من المستحيل حتى تخيّله، فكيف بتنزيله من العالم الأزرق إلى العالم الأسود؟ كل شيء كان يوحي لِما أُدركه يقينا، لكنني كنت مخدّرا فاستأصلتِ من جسدي ما تشائين، كنت أضرب عرض الحائط استنتاجات العقل الباطن في سبيل بقائك، كنت لا أجد لتوالي لومه وعتابه إلا جملة لا طالما أدمت جراحي، نقاش بيني وبينه أنهيه بعبارة "الحب أعمى".

بعد غياب دام ساعات وسط دوامة أفكار تعجيزية جاء استفسارك:

– ما بالك حبيبي أطلت الغياب؟

جاء صوت الرسالة منبها لي، فزعا انتبهت أني تأخرت في الرد عن رسائلك، وعرقلت سيلان الكلمات في بحر محادثات الحنين، عجلت بترميم الوضع وبدأت أخط طلب استعطاف للجهات العليا أستميحك عذرا لتأخري:

– آسف حبيبتي لقد سافر بي نصك إلى ما لا نهاية، فأنساني حق الهيام واجب الرد.

– أسافرت وحيدا لتتركني هاهنا متعلقة بحبال ردّك السامي؟

– بل سافرت فيك بين كلماتك لأنعم برحيق مقلتيك القاني..

– حبيبي متى سنلتقي على ضفاف نهر "الرين"؟

– ولم ليس نهر "سبو" أو "ملوية" في وطننا الحزين؟

– ها أنت قلتها وطننا الحزين لا يسقينا إلا حزنا، فكيف نهديه مشهدا ملؤه حنين؟

– أنا وطنيّ إنسانيّ وإن أُحرقت لا أنفث دخانا، بل أفوح عطرا لا أُدنّس أبدا ابتسامة قررت الاستقرار على محيّاي منذ سنين..

– لا يهمني أين حبيبي بقدر ما يهمني متى، فشوقي يزيد مع توالي الأيام ولا يقبل هذا الطلب التحيين..

– كنت قد رتبت موعدا فيما مضى لكن القدر غير مجراه..

– لا أريد العودة للماضي حبيبي، فذكراه تؤلمني، تناساه ولترتّب موعدا آخر بحلّة واقعية رصّعه بالتعجيل.

– سأعمل على ذلك إن شاء الله فصبر جميل..

– (سأعمل) فعل بعيد المدى لا أحبّذ حتى سماعه في تفاصيل عادية فكيف في أمور مهمة كهذه..

– قريبا إن شاء الله سأكون هناك فلا تيأسي من يأسي..

أطلنا يومها الحديث عن سبل ترتيب موعد قريب، فانتهت المحادثة بالتمني كما كان في الأمس الغريب، فيومها حين كنت أرتب موعدا أزف بالورد الحبيب، كنت في غياهبك تعدين لأمر مريب، وكان الفاصل بيننا اتصال هاتفي من أعالي الجبال أحاول أن أزف فيه البشرى، فترصدت بصيص شبكة كأنه تنقيب، لا يهم مدى صعوبة الوصول إليك بقدر ما يهم كم الترحيب، جاءتني كلماتك من الضفة الأخرى لتستوقف أحلامي وتبعثر الترتيب، جاءني سهمك فألجم اللسان وعرى ذاك اليوم مسعاك العجيب، توقفت حواسي من هول الصدمة وما اتقد إلا القلب فزغرد نحيب، وتركتك ترحلين في هدوء لم أشأ تعكير حتى مشهد تلويحك على أنغام العندليب، مشهد رومانسي استمتعت بعيشه إلى

أن تسللت نبال هجرك تواليا فأحكمت أحلامي تكليب، التزمت الصمت أياما لأفسح المجال لقلمي الفياض في مثلها حالات يكتب في جرمك مدحا أبدا لا يعيب.

اقترب موعد الرحيل، وكنت كلما تذكرت أني راحل للمنفى المرقط حزنا على ثوب تقي بريح عليل، أسترجع ذكريات أبيات نظمت على أعتابك يوم بدأ القلب إليك يميل، يوم رتب القدر أول وداع ليعرّي النوايا عفوا لا تذليل، تذكرت البدايات وعُذوبتها لكن سرعان ما يتلاشى الطعم ويجف لعاب كان فياضا يسيل، تذكرت أن العالم سينسى شخصا كان يكتب على "بروفايله" ليبوح لشخص كان لا يبصر من البوح إلا الفتات القليل، تذكرت قساوة الظروف الممحوقة بجمالية الطبيعة وطيبة الخلق ورائحة الفتيل، تذكرت رحلة الشتاء والصيف بين قسم أزوره في ليال الصقيع لأنعم بأخبارك وكوخ أتعبد فيه مستأنسا بكلمات حرفيَ الجميل، تذكرت كِسرة الخبز التي تقاسمتها وإياك في غفلة من العالم والزميل، تذكرت نصائح العشير الثائر في وجه المشاعر لأجيبه "مكره أخاك والقلب عليل"، تذكرت الطامة الكبرى ساعة انسلالك من جرحي لينزف من حر قرار عقلك العميل، تذكرت سائق عربة النقل المزدوج الذي تنبأ لحضورك في حياتي ساعة رمقني من مرآته بنظرة كلها تنكيل، تذكرت فتيات القرية وهن يتغامزن لحظة هاتفتك من على الربوة بابتسامة أوحت بشيء من ذاك القبيل، تذكرت يوم هددتِ أني إلم أعجل بزيارتك فإنك ستباغتين ولا تهمك العواقب ولا التفاصيل، تذكرت أني ملزم بالتحضير لموعد الفراق نص وورد وصمت وأغان حديثة التسجيل، تذكرت أن فراقك اليوم لا يمث لسابقيه بصلة فضباب العودة عتم الرؤية فوسوس التحليل، تذكرت فزاحم حضورك الذكريات، ففي كل حدث توقيعك أنهى بختم مرصع ذهبا مشاهدا ما أظنها سوى تمثيل.

عدت بعد انقضاء العطلة الربيعية التي ما أزهرت إلا بعد إطلالتك، عدت أدراجي إلى الأهل لأودع وألملم أفكاري الحزينة، لم يبق على رحيلي إلا ساعات معدودات، كان شغلي الشاغل توديعك، لا أدرك أني متيم بك حد الهوس إلا لحظة اقتراب مراسيم التوديع، لم

أكن متيقنا قط أكان الذي يصيبني في الساعات الأخيرة خوف من معانقة المنفى أم خوف من فقدانك؟ المهم أني كنت لا أحسد على حالتي النفسية، لطالما أفلحت في مواراة حزني بابتسامة منحوتة لا تفارق محياي، لطالما كنت الناصح المواسي الراكن لخلق الدعابات المتفنن في رسم الابتسامة على وجوه ذابلة، لكني كلما خلوت بنفسي تذكرت سخطي من مسار لم أبدع في رسمه، ولعلك اليوم ذاك البصيص من الأمل الساطع من المجهول، مجهول ينتظرني لكن الوعد الذي رسمه قلبي الجريح يهدئ من روعي كلما زارني اللوم والعتاب من العقل المكبل، حبيبتي هاهو النص معد والأشغال على قدم وساق للانتهاء من ترتيبات التوديع، وها أنا ذا أمام الشاشة أتهيأ نفسيا قبل الولوج للعالم الأزرق الذي جمعنا في يوم من أيام عام الوزرة البيضاء.

راجعت نص أفكاري قبل أن أدون عنوان بريدي الإلكتروني وكلمة المرور، هاهي ذي عبارة كتبت على شاشتي تقول انتظر، قلت في نفسي لا بأس، فسنوات مرت كلها بعنوان "انتظر"، لا أعلم لم أحس بالارتباك كأنك بعد هنيهة ماثلة أمامي بشحمك ولحمك، لا أعلم لم يشل لساني فلا أتقن بعدك إلا النقر والملاحظة، حتى أمام صورك التي تبعثينها بين الفينة والأخرى أبقى مصدوما منتصب الحواس لا أريد أن يفوتني من تفاصيلك شيء. انتبهت لولوجي عالمنا فعدلت من قعدتي أمام حاسوب ليس لي، وركزت مقلتاي على موضع الرسائل، وكما توقعت رسالة منك بددت مخاوفي من البدايات المتعثرة التي لا أجيد صياغة عباراتها.

راسلتني مرحبة كما العادة بكلمات ملؤها سرور:

– أهلا حبيبي، كيف كان يومك؟

لا أدري أهي أعراض الرحيل أم هو ميولي ألبسني حينها ثوب المسلم المنحاز فبادرت بتغيير عبارات الترحيب:

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله على كل حال.. وأنت كيف حالك؟

– الحمد لله، كلما حضرت تحسنت أحوالي، وتلاشت عند لقياك آلامي، وتبددت مخاوفي.. فما أبغي في حضرتك شيء، وما أملك في غيابك شيء...

توقفت أمام أحرفك الذهبية أستمتع بلمعانها، غير مبال بمصداقية الكلمات أكحّل مقلتاي بنرجسية المعاني الأخاذة التي رسمتها، غير مصغ لنواقيس الخطر التي يدقها العقل اتخذت جلسة أكثر راحة حتى أتلذذ بعسلية المشهد الذي أبدعت في أدائه، خرجت عن نص السيناريو فخرجت عن نص المحادثة لأغوص في أحضانك، مدرك أنا أني غارق في تفاصيلك، لكن الموت فيك أرحم من العيش في الشط بعد لفظك لجثتي، نسيت كما العادة واجب الرد لولا رسالتك التي نبهتني معاتبة:

– أين أنت حبيبي؟

– عذرا حبيبتي لقد غصت وكلماتك في أعماقك.. فنسيت أني ملزما بالرد فاعذري قلبي المشتاق حبيبتي..

– لا بأس حبيبي.. لكن إن كان قلبك حقا مشتاقا، فلماذا لم تعجل حتى اللحظة بالالتحاق؟

– الظروف كبلت أطرافي، والبعد أخرص حتى همس أصدافي، وما كنت أنضمه للقياك جاء القدر فبعثر القوافي..

كنت مدركا أنك لن تستوعبي من كلماتي هذه إلا أحرف الظروف، وما كنت أنوي أن أعكر صفو العودة خاصة في ظرف كهذا، فتوارت حقيقة كلماتي ما وراء السطور، ولأني أعلم يقينا أنك لن تشهدي عيون الحقيقة التي تترصد جرمك من خلف الأحرف المتهالكة، رممت العبارات حتى لا تتهاوى أمام قراءاتك السطحية، وكأني أصدقك القول

بلغتي المتأنقة سوادا كلون غلاف كتابي، خوفا من فراق آخر لا أنوي افتعال شراراته، أحبك رغم يقيني أنك لابد راحلة، فحبيبي في قاموسك باسمي لا تعني إلا تجربة تدرس للخروج باستنتاجات قد تفيد كما قد تمحى بنقرة زر عنيد...

سألت من مكانك العالي، وبنبرة اللامسؤول عن مماطلة اللقاء:

– حبيبي ومنذ متى كانت الظروف عقبة لا يمكنك تجاوزها؟

– لم أقل إني عاجز أمامها، لكني أحتاج فقط بعض الوقت حتى أستعيد إمكاناتي مرة أخرى..

– وما حاجتي بإمكاناتك أنا أريدك أنت، لا تهمني ترتيباتك بقدر ما أطلب ود لقائك في القريب العاجل..

تتعودين إحراجي بكلمات كالحقن قد توجع لكنها تبرئ، وما علتي إلا خوف من المغامرة، لذلك أطيل الترتيب حتى تضيع الفرص، فرتلت على مسامعك كلمات المماطلة كما العادة:

– صبر جميل حبيبتي، فغدا يحين موعد اللقاء، سأعمل على تخصيص وقت وسط زحمة برنامج عملي، فلا فسحة كما تعلمين إلا بعد قرابة الشهرين..

– تذكرت أنت راحل غدا إذن..؟

كيف تاه عن وترها اللحن الأعذب ذوقا.. لحن الرحيل؟ كيف زاحمت الأفكار في دربكة لترقص على إيقاعات خطط العميل؟ كيف عرّت مفاتنها وسط مجمع العشاق لتظهر جليا نواياها مزركشة في دليل؟ كيف امتلكت الشجاعة لتنشد على أعتاب الرحيل موشحات تعج لحنا ذليل؟ كيف أبدعت في التمايل متثاقلة الخطى عن الركب حتى تتسنى لها محادثة الخليل؟ كيف توارت حماسة هوسها بحروفي، فلا يمر منها حرف حتى

تدقق في التفاصيل؟ كيف انتهى عهدها بالماضي، ساعة كنت القهوة التي لا تستنشق إلا نسيمها العليل؟ كيف تاهت عنها صفحاتي، أم تراها تخلت حتى عن العلامات وتلاشى العشق واضمحل الوسيل؟ كيف تحولت من غاية تدرس جميع السبل للظفر بها، فغدوت الحمل الثقيل؟ كيف أجيبك اللحظة، وما عساي أقول بعد مطارق التحليل؟ كيف أكمل المحادثة بقلب هشمته ونثرت شظاياه على قارعة التقليل؟

أطلت تحليل سؤالك الذي زاد من ضيقي، وفي عز التحليل جاءني ردك ليطفئ نارا ما تركت خلفها إلا حروقا متفاوتة الدرجات:

– سأشتاقك حبيبي...

كان وقعها كالعلقم المتأخر، دواء أي نعم، لكنه وصل بعد فوات الأوان، بعد أن أدركت أني تدحرجت من على رفوف الأوسمة لأوشح عريف ثكناتك، اليوم كل ما أعلمه وقد كنت أخشاه أننا نجدف نحو المجهول، والحقيقة أني المجدف وما أنت إلا مشاهدة إلى أين سيقودني تيارك، رقيقة أنت حتى في أحكامك، حنانك يطال حتى طرق التعذيب ليجعلها إما قطرات من فيض كلامك المعسول، تقترين في المحادثات أحيانا بشكل غير معقول، وإما وخزات إبر من حروفك الملتوية، متناسية أني أرتشف من الجرة لا من كؤوسها المزركشة.

أطلت التريث حتى لا أعامل بالمثل، رسمت ابتسامة كما العادة، ثم رتبت كلماتي لأطلق سراحها بعد الفحص والتحليل، فقد رحلت عنا عفوية الزمن الجميل، لا أدري إلى أين؟ لكنك خطفت اللب لتتقاسم القشور، حبيبتي لك ما أردت. مستأسدا في ساحة المعركة أدافع عنك رغم كل ما أجرمت، يقين يقمع ريبي لأبقيك، لا أرغب البتة في إيذائك وإن رغبتي.

أجبتك على مضد من تصرفاتك، أجبتك لعل القادم أحلى كما أسر قلبي:

– أنا كذلك سأفتقدك...

– لماذا بدأ ردك يتأخر عني حبيبي؟

راوغت كما العادة حتى لا أرسم على محياك الجميل شرارات العبوس:

– أنا هنا.. فقط أحاول استغلال تأخر ردك لأكمل لملمة متاعي.

– أحس أنك ستتخلى عني؟

– كيف ذلك؟ أنت تعلمين ظروف الجبل وما تسوقه من إكراهات؟

– أعلم كل ذلك، لكني لا أحبذ غيابك كما عهدته.. حاول إيجاد حلول.

– حلولي لا ترقى على ما أظن لتطلعاتك، لكني أحاول جاهدا إبقاءك، فحاولي إبقائي بالصبر فغدا فرج جميل إن شاء الله.

– لا مقدرة لصبري على طول غيابك حبيبي..

– فقط حاولي، تعودي التشبث بي بين جوارحك، املئي فؤادك بعشقي، ولن يضايقك إن غاب صوتي أو حتى رسائلي..

– أخشى أن أتعود غيابك، فتنطفئ شمعة عشقي لك، وتتقد في قلبك نيران هجري..

– القلب على ما عودته قائم، فإن أردتني غاية رسمت معالم خلودي على أعتابه دون أن يدري..

– حبيبي لا أعني أني مغادرة أنا الأخرى على خطى رحيلك الحتمي، ما أصبو إليه هو محاولة إبقاء شيء منك على هامش هذا العالم الذي جمعنا..

– أعلم حبيبتي.. سأحاول فوق المستطاع الركون لمداعبة هاتفك المحمول من حين

إلى آخر...

– لا أريد محاولات قدر ما أبغي أفعالا..

– حسنا حبيبتي، لك ما أردت..

– اللحظة وبعد أن اطمأن البال على سؤالك، سأتركك لترتاح لساعات، فقد اقترب موعد استيقاظك ولازلت مستيقظا..

– حسنا سألوذ لوسادتي علها تعانق جفني للحظات..

– لا تنسى أن تهاتفني بعد وصولك غدا..

– إن شاء الله..

– سأشتاق لتفاصيل حضورك في عالمنا حبيبي..

– سأكون أكثر شوقا سيدتي.. أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

– إنتظر..؟

– ماذا هناك حبيبتي..

– أحبك.

كانت آخر كلماتك دفعة معنوية، بل سلاحا رصع كتفي وقلدني وسام راحة البال، سأرحل لمنفاي وأنا أعلم يقينا أن هناك من ينتظر عودتي على أحر من الجمر، سأرحل إلى الضفة الأخرى من العالم وأنا مدرك أن هناك من يقلق راحته غيابي، سأقصد مقر العمل بين جبال الأطلس المتوسط وأنا متشبث ببصيص أمل عنوانه هناك من يزوره طيفي، إلم يكن رفيقه لا يبارح حتى صغائر أفكاره، سأرحل لأبلغ الرسالة وكلي حماس، يدفعني إحساس أكيد مفاده أن هناك من تتلذذ مسامعه عند كل لحن يحبه ليهتز قلبه لافظا اسمي،

سأرحل بقلب خاشع يعشق كل محال حين يتذكر أن هناك من يأتي على ذكر اسمي في كل حين سرح به ذهنه إلى عوالم غير الواقع.

## الفصل السادس عشر

قساوة ظروف العيش على سفوح متحجرة تتصلب معها الأحلام، فلا تبسم إلا لقطرة مطر أو رقصات حمل أو ضحكات صبية.. واقع لا يتغزل إلا لكِسرة الخبز الدافئ من أياد سخية..

أتراني شخص وهمي لا يليق بي الحب إلا على أعتاب العالم الأزرق ونظرائه، أم تراني الأحمق الوحيد الذي لا زال يؤمن أنه سينعم يوما ما بمن تحبه، وهو موار ملامحه خلف ستار، أهو الحنين لتقاليد الزواج قديما لذى قررت التغاضي عن جمال الوجه لأرتشف من جب العقل ما يوصلني إلى القلب، أم هو الخوف لا محالة من المواجهة رسم سبلا سهلة المسالك إلى علاقات وهمية، تزدان بحلي الحب لتزين الحرمان، لا أظنه إلا جبنا حجب الرؤية عن قلب هش لا يقدر على الإندماج في واقعه فركن لرسم حياته على ضفاف عالم النسيان.

بقيت مستيقظا يومها أتساءل وأعدد أسباب المآل حتى خارت قواي، فأسلمت جفني لبارئها وما هي إلا غمضة عين حتى جاءني صوت المنبه ويا ليته نبهني لصعوبة ما أنا مقدم عليه، قمت من مرقدي فبعده لا مجال للراحة، توضأت لأصلي فجرا أتمنى أن تشرق شمسه بالبشائر، قضمت كسرة خبز وارتشفت شايا فالشهية غادرتني ساعة رحيلها، ودعت الأهل بالدعوات وكم تمنيت أن تكوني بينهم، حملت زادي مطأطأ الرأس بابتسامة شاحبة غادرتك، نعم لقد كنت حاضرة في ركن من أركان بيتنا المتواضع، نعم كنت خلف شاشة الحاسوب الذي أخذ كل وقتي بعد أن عرفتك، رمقتك بنظرة ملأها الحزن والأسى لثوان أنستني أني راحل، ذكرتني حمولة الزاد بأني ملزم بحث الخطى للقاء عربة النقل المزدوج.

سرت على عجل رغم الوزن الزائد إلا أني تعودته، تعودته أو بالأحرى تذكرت أنه لا يساوي شيء أمام ما سألقاه، هرولت وهرولت أفكار ترسمك في لوحات تشكيلية متنوعة، تنوعت المدارس ومحياك واحد، مدارس شوهت نواياك ولطخت بالأسود كلماتك وقلبت الرسوم فتقلب مزاجي، ومدرسة رسمتك زهرة فواحة كما أنت، بعيون

زرقاء وشفتين ورديتين مفعمة بلحن الحياة الذي لطالما رددت، فوقفت أحمل متاعي على أنغامه لا أبالي بضجيج الصحب من حولي حتى أبقيك، سلمت وصافحتهم منتشيا بكلماتك الأخيرة، وسلمت جفني بعدما صعدت حتى لا ألوث لحنك بقصص الجبل الذي ما أحببت.

بين غمضة وانتباهتها، أصادف قصصا لركاب الجبل، لا أعلم لم ألوم الجبل رغم براءة ملامحه، كل ما فيه ينم عن وطن حيي احتضن أهله فجاد من خيراته بسخاء، ألهم الراعي كلمات نظم من فيضها موالا لقطيع رد ثغاء، وألهم الكاتب كلمات تذوقها ليرتبها على هواه بدهاء، ومتع الناظر بألوان مشفرة مرّرت رسائل لمقاومة حاربت حتى آخر قطرة دماء. كئيب ما يعانيه مغترب إلم يتعود قساوة الظروف، من الصعب أن تتأقلم لتنمو بين صفائح صخرة صماء، لكن إن أردت فقاوم الضيق والعتمة لتتفتح على تغريدة بلا تعاليق، قاوم لتتنفس نسائم الصباح من كلمات الصبى، قاوم لتتشرب ندى الرداد من عيون ترمقك بهيبة غدا، قاوم لتشدو على نغمات تغريدهم ولحن ضحكاتهم يرددها الصدا.

يومها لم أستيقظ من غفوتي إلا بأمر من صديق الجبل، هو صديق الدراسة قبل أن يغدو عشيرا وزميلا في العمل، جمعتنا حجرة الدراسة بالمستويات التأهيلية، فأبت إلا أن تعاود لم شملنا، لكن هذه المرة بلباس أبيض غير مواقعنا، هي ترقية من طاولة لمكتب، ترقية كنا نتمناها دون أن نعي مساوئها، لا نعلم أمن سوء حظنا أم حسنه ساقنا القدر إلى أعتابها لنلج رحابها.

كان صديقي في الغربة بمثابة الرحمة المهدات، كان رجلا متضارب الأفكار، بابتسامة دائمة لا تميز منها الجد إلا إذا عاشرته، كان التفاؤل يملأ جنباته حتى يكاد يفيض على من حوله، طويل القامة كالعود الرفيع تكاد تنطق صلابته، رشيق في حركته بخطوات متوازنة

لطالما عرفت وجهتها ولو أسرّها، رسم له طريقا محفوفا بالعقبات التي اعتاد تجاوزها بخفته، كان يعتبر صلة الوصل بيني وبين ساكنة الجبل، لإتقانه لغتهم التي جهلتها.

لطالما كان عمليا يتفانى في تأدية واجبه المهني قدر المستطاع، بحماس زائد يتنقل بين طموحاته ليجعلك تتجرد من خمولك، كان صحبة الخير التي قومت بعضا من اعوجاجي، لازلت أتذكر أول يوم لنا بالدوار، حين وصلنا على ظهر تلك الدابة التي تدعى "بِيكُوبْ" مسيرة خمس ساعات في مسار جبلي أربك مواضع أعضاء الجسد فكيف بالمتاع، وبعد أن خبرونا بالوصول انفرجت بصعوبة أسارير محيا تأبى القبول، نزلت لأنفجر ضاحكا على هيأت صاحبي الذي كان غير الذي عرفته، شابَ من شدة الغبار المتراكم على رأس شعره ورموشه، وشحب وجهه، وتلونت ملابسه لتقارب لون شعره، كنت كذاك لكن الجمل لا يرى سناه كما يقال، نفضنا غبارا قد يصاحبنا لسنوات، وانطلقنا نبحث عن متاعنا بين متاع الخلق وحيواناتهم، ذهبت بعدها لأدفع ثمن البهدلة فسألت السائق:

– كم ثمن التوصيلة سيدي؟

– مئة درهم...

تذكرت العبارة التي يتقنها كل مغربي قدم خدمة لأجنبي ما "مئة درهم" بلغتهم، كأننا لا نحفظ من الأرقام إلا المئة ولا نعلم للغة الفرنسية لفظا إلا ذاك. دفعت معززا الورقة النقدية بعبارات شكر وامتنان، فقد أحتاج ود هذا الشخص رغما عني، وقفنا قرب متاعنا القليل على أعتاب باب المسجد، حصير وبعض الأغطية وقنينة غاز ومؤونة تكفي لأسبوع، وكتب قد نحتاجها لزوم العمل، تحلقت حولنا سريعا عيون تستشف مدى صرامتنا من عدمها، لتنطلق بعدها مناجاة نكاد نسمع بعضا منها، لازلت أتذكر جملة أضحكتني حين ترجمها الصديق، حيث قال أحدهم سائلا ربه أن يدرسه زميلي لأنه الأصغر، وقفنا وملؤنا الإحراج ننتظر من يدلنا على مأوا نلوذ إليه قبل حلول الظلام،

جيء بمفتاح لباب جاور المسجد فاستبشرنا بخير جار، فتح الباب فإذا هي غرفة واحدة لا تحوي إلا طاولة، كأنهم تركوها هناك حتى نتذكر ونحن نرتاح ما جئنا من أجله، غرفة واسعة ببابين لا نملك إلا مفتاح أحدهما، صندوق خُبِّرنا أنه مولد للطاقة الكهربائية، وهناك ألواح للطاقة الشمسية، استبشرنا خيرا لنخيب بعد علمنا أنها معطلة لسبب، وقيل أن الربط بالكهرباء على بعد خطوات لنجده على بعد أميال وأميال، وقيل أن السكن مؤقت إلى حين لنمضي فيه سنوات، وقيل أن الشبكة على وشك الإصلاح لنعيش دونها، وقيل أن... وكل ما قيل فنّده الزمن.

فرشنا حصيرنا بعد أن تطوع بعض تلاميذنا لتنظيف المكان، ووضعنا متاعنا لنستهل جلسة الاستراحة بكأس شاي، وبعدها توضأنا لنصلي المغرب ثم العشاء، وبعدها لقيمات كانت بمثابة جرعة زائدة من مسكّن أردى أجسادنا صرعى الفراش لساعات طوال.

استيقظنا على وقع جعجعة ثلة من حفظة القرآن الكريم، صوت يميل إلى الصياح وما هو بترتيل، صبية غادروا الفراش ليفترشوا من السطح حصير، أعمار متفاوتة كما أحجام الألواح الناعمة الملمس كالحرير، وأياد تفطرت دما من شدة الزمهرير، وثوب مهترئ لا يسمن ولا يغني من قساوة الظرف المرير.

نفضت الكسل ولملمت فراشي، وانتظرت الزميل ليخلي دورة المياه التي لا مياه فيها، تضطر للخروج مسافة أمتار حتى تملأ سطل ماء، وتعود لتقوم بتسخينه، قبل أن تتجه نحوها ولو كان بك ضيق، ثم بين خروجك للعلن ودخولك للغرفة مسافة حرج.

كل ما أرويه في كفة والواقع أبى أن يوضع في الكفة المقابلة، كل ما يحكى يحرف حتى لا تصير الوقائع سهام تصيب خطأ صدر عابر، كل ما قاسيته يهون ولا يهون علي حتى أن تعلميه، رأفة بمقامك الندي كتمت ظمئي للقاء أنضم فيه المعاناة بلحن عذب وصوت شجي.

كانت القرية بمثابة الحلقة المفقودة في حياتي، لم أكن أظن أني سأولد هنا من جديد، بل لم أكن أعلم أنها حق موجودة بين جدران هذه الجبال الشامخة، كما أنت.. لم أعلم أني ملاقيك هاهنا بين آلاف البروفايلات، إلا أنك الزهرة العابقة التي أحيى بطيبها في هذه الأرض القاحلة، لم يكن يؤنسني إلا وجودك منتظرة ظهوري على الجانب الآخر من النهر، على الضفة الصاخبة بالحياة، بينما يقبع هاهنا شرذمة يسيل لعابهم كلما أضاءت من على ضفافكم أنوار، تطبعت بطباعهم، وغدوت منهم أساير طرائق عيشهم، وأتلقف بين الحين والآخر كلمات من لغتهم أضيفها إلى معجمي، لأركب جملا متهالكة تضحكهم لكنهم على الأقل يفهمون قصدي.

كنت سعيدا بانصهاري في ثقافة جديدة، بتعلم طباع فريدة أحيت جذور التواصل بين أبنائي، كانوا بمثابة المتنفس في غياب الأهل والأقارب، إلى جانب كتب وروايات أقرأها تواليا دون كلل أو ملل، رغم ضيق المنفى إلا أن أشياءه الجميلة لازالت خالدة في ذهني، لازلت أحزن على ضياعها كما ضياعك، ضياعك بين أزرار هاتفي ونقرات حاسوب ليس لي، ولا أعلم أكنت يوما لي؟ أم كانت مجرد أوهام رسمت بألوان زهرية، كما ألوان الأسلاك التي ربطت أواصر علاقة وهمية.

رن هاتفي بينما كنت أهمّ بكتابة رسالة إليك، أجبت سريعا لأخبرك أنني كنت بصدد مراسلتك:

- أهلا وسهلا وألف مرحبا سيدتي..

- أهلا حبيبي..

ويا لطعمها بالغربة، حين تقتلك وحدة الأفكار لتعيش وحدة القيم، حين تنتابك حمى اللامبالاة لتعيش الفراغ الذهني، تتشبع بالروحانيات لتحس بقربك من الله، تهيم في الزهد تتناسى ملذاتها لتحيى حلاوة المحنة في قالب صوفي.

تحدثنا لدقائق معدودات مشحونة بالكلام المعسول، تغازلنا حتى قدّ أحلامنا رصيد غفلناه، ثم أكملنا بفتات رسائل نصية لا تسمن ولا تغني من شوقي لك، ثم ألزمني ميلان الشمس إلى المغرب لملمة متاعي لمغادرة حبل الصلة الذي لطالما جمعنا، غادرت الجبل الذي كلما صعدته رن هاتفي لاستنشاقه طيب الشبكة التي ألفها في الحضر، غادرته وغادرتك مكرها إلى حين، وسلكت من بين أشجار الصبار طريقي إلى الغرفة بل الكوخ، وأنا ألامس طيب أزهارها لأتشبع بصبرها، مواسيا قلبا شارف على الذبول كلما تذكر بعد قطراتك عن جذوره.

على أعتاب الكوخ أذن المؤذن معلنا انقضاء يوم آخر من دونك، فهاهنا اسدال الستار عن ضوء النهار يجبر حتى المتحابين على الخلود للنوم، لا مجال للمسامرة ولا سبيل للتواصل مع الكل، فالكل تغيب شمسه وينحني رأسه وتتوقف عقارب أفكاره وتتراقص جفونه، ليجعل كل شيء حوله يبدو كالمخدة تناديه، تصلي المغرب وتنتظر بشغف صلاة العشاء، حتى الصلاة تؤدى بتثاقل، لا الآية تعظ، ولا الركوع والسجود تسمع له نجوى الدعاء، لتغدو العادة حبيسة حركات تشبه آخر اللمسات في عملك اليومي، لا يهم كيف أديته المهم أنك تخلصت من السؤال عنه...

استيقظنا لصلاة الفجر على صوت منبه ينادي وما حسبته إلا اتصالا منك، عدلت الجلسة لأتفقد الشاشة بشغف مشتاق، لكن أيقظني قفل باب أحكمه الصديق إغلاق، لابد أن يكون لك من أحلامي نصيب، كيف لا وأنت الشغل الشاغل لحياة أهدتني حبيب، لكن للأسف أكثر شيء أنساه هو حلم تمنيت الغوص في ذكراه، كحلم لقائك ولو للحظة رغم تعدد الأعذار وتعنت الإكراه، كحلم مصادفتك في أحد الشوارع أو في أحد المطاعم التي كنت أرتادها، في مدينتك التي زرتها بعد رحيلك.

## الفصل السابع عشر

حاول كبح حروفك عن العدو جملا، فما الجمل إلا أراض ملغومة في عيون معطوبي حرب الكلام..

يومها وبعد صباح مضن قررت السفر لملاقاة جزء منك، لأتلقى بعض رسائلك، أو حتى بعضا من ذبذبات صوتك الناعم كالحرير، قصدت طريق الوادي، طريق في العادة يسلكها قطيع الأغنام ليرعى، لكن الكل هنا يرعى بمجرد مغادرته لحدود الدوار، هرولت في المنحدر مرغما، لا لشدة انحداره بل هو الحنين ألزم ساقي الرفرفة في رشاقة متناهية النظير، لا يهم إن سقطت فقد سبق وأن سقطت في غيابة حبك، سبق أن تمرغ أنفي في تراب قرارتك المتلاطمة، سبق هيامي بك وهم لطالما حذرني منه زميل مجرب فأنذر.

وصلت أخيرا قدري فجلست على ذات أحجار وصخر، التفت يمنة ويسرة حتى لا يحضر لقاءنا لا حيوان ولا بشر، اتكأت متناسيا همومها فهمي بين أزراره وزر، انتظرت الإشارة لتتهلل أسارير قلب يلتقي مُكبّله الذي أسر، أسر حبه للحياة فعافها ليحبه تحت المطر، مشهد رومانسي ألهم العبيد فرارا إلا من شاء فصبر، كان يريدك متحررة من قيد متيم أو حتى معجب صادفك في ممر، كان يغار عليك من التعاليق المترامية على أعتاب منشوراتك فكيف بطلبات الصداقة في المعبر، كان يمتقع من سرد تفاصيل معاكسة أو إعجاب من فذ أو نفر، كان يريد عقد ملكية حتى لا يطأ أرضك هندوس أو غجر، كان يخشى محادثتك على مسمع من الخلق فكيف بالنظر، أحبك رافضا مخالطة طيبك بزهر، أحبك فلاذ فرارا من ملذاتها لينعم بتفاصيلك في وزر.

رن هاتفك في الجهة المقابلة ثوان ليصلني صوتك الدافئ رغم البرد القارس، ليصلني شغفك كأني المنقذ الفارس بادرتني مرحبة:

– أهلا وسهلا حبيبي، "توحشتلك" (اشتقتك)...

كم أعشق لهجتك الشمالية المرصعة حنان، كم قلدت كلماتك حتى أنعم ببعض من حنانك الفتان، لم أنعم يوما بالاكتفاء من سماعك فكيف بمشاهدة قسماتك الحسان، أذكر

أن معظم محادثاتنا أنهاها رصيد خوان، أذكر أنك كنت تصرّين حصولي على اشترتك في شركة للاتصالات يضمن تواصلنا بأمان، أذكر أني كنت بصدد تحقيق حلمك لولا مغادرتك قبل الأوان، أجبتك بنشوة الثمل:

– أهلا أيها الحب... وأنا أكثر شوقا لك سيدتي.

أجبت بعناد صبية بريئة:

– كيف علمت أنك أكثر شوقا؟

بادرت بعقلانية متناهية النظير، لطالما وظفتها في محادثاتنا لأنعم باتزان علاقة على الأثير، أثير إذاعة الحب التي لملمت شتات الراعي فكيف بالبعير، كانت بمثابة اللجام الذي يكبح جماح الخيل ساعة الرقص في الأفراح على وقع الخرير، كانت بمثابة قطعة الثلج التي تسندها لجبينك في عز الحر لتنزلق مخلفة إحساس الجو المطير، أجبتك بقناعة شيخ ابيضت معظم خصلات شعره فتذكر شبابه المثير :

– هي سنوات تجارب رجحت استنتاجاتي صغيرتي...

– لكنك لا تكبرني بكثير حتى تتباهى بتجاربك أبتي...

كم كنت أتلذذ بطعم الأبوة حين مناداتك لي بأبي العزيب، كنت أود فعلا أن أكون لك الأب والأخ والأهل قبل الحبيب، كنت أرغب في أن أعين نفسي حضنا لا بعده ملاذ ولا زريب، لأتملك سراحك من قضبان مشاغلها وسجنك من ملذاتها فألقاك ترحيب، كنت أصبو لأبلغ من ذلك تملكا لا بعده عتق ولا تغريب، كنت الدار التي أردت إيصادها حتى في وجه القريب.

أطلت التفكير في الطعم حتى جاء مرسولك يخبرني عن موعد الرد فأسرعت بالكتابة:

- أكبرك بقدر من الزمن أمقته لسبب كئيب...

- ما بالك حبيبي ما السبب؟ ماذا هناك؟

- ليس إلا لأنه منعني لقائك قبلا، وفي ظروف أفضل..

- لابأس المهم أني التقيتك كيفما كان الزمن والظرف فأنت أريد..

إحساس رائع أن تسمع عن شخص يريدك كما أنت، بل أن تقرأ فقط أنه يريدك دون مقدمات ولا زخرفة في الكلمات، يريدك كما أنت بحلوك ومرك ويرغب في جوارك دونما ترتيبات، يريدك بحسناتك المتقاترة وسيئاتك المتقاطرة بغزارة المطر، يريدك بقسمات وجهك الشاحب المتجعد من برد البادية الممزوج بغبر، يريدك بدريهماتك المعدودة وانتمائك النائي في المغرب المنسي ما وراء الفقر، يريدك بمزاجك المعكر لساعات النهار حتى السحر، يريدك بطولك الفارع الذي قد يظهر معه قصر قامته ويعاب اختياره في أعين البشر، يريدك مهما حالت بينكما العوائق وتلاشت إمكانيات الجمع بين شمسه والقمر..

أجبتها وأنا أعي ما أقول، وأنا في كامل قوى قلبي، وأنا متأثر بما جاء به نصها ليبدع من خلاله نصي :

- أريدك بمحاذاتي.. فبعدك يهشم أضلاعي بالترتيب..

- ما تعانيه ليس إلا نفحة مما أعيشه كل لحظة فأتمسك بحبل صورك القريب..

- تتمسكين بقشة الصور..

الصور التي لا تسمن ولا تغني من جوعي إلى لقائك الذي فطر، فطر فؤادا ما عاد يرى غيرك وإن تهاوت الفرص واصطفت على بابه الحريم كالوبر، لا تسمن ولا تغني من جوعي إلى تفاصيلك إلى قسماتك المنحوتة بإتقان كلما لصورك نظر، أقلب الصور كلما

غادرتني أحاول أن أرتشف من محياك شربة هنيئة تقيني الخطر، أداعب وجنتيك بأنامل ترتعش كلما اقتربت لتلامس الشاشة فتلسعها موجات كهربائية توقظ العقل الباطن وتصحح البصر، مللت هكذا لقاء لكنه النسيم العليل الذي يداعب خصلات رأس أنهكه بعدك لساعات تزيد عن العشر، حتى مطالعة المحادثات ما يزيدني إلا اشتهاء تنعدم معه الرؤية إلاك ويضيق الصدر، تتقد حماستي لسفر أزورك فيه خلسة على حين غرة، لأنال من شغفك لحنا يداعب للفؤاد وتر، أخطط في غنى عن ترتيباتك رغم إمكاناتي الرومنسية، لكن أظن للبساطة طعما على لسان الظمآن للقطر، أسألك عن الدار قبل القرار.. وأحاول تعقب خطواتك في الزقاق بحرف أو سؤال.. وأعدّ الدرَجَات صعودا لعلي أرسم خارطة طريق لخططي الفاشلة ومع كل إجابة أغتر، أذكر أني قد طالبتك بصور للحي علي أستدل بها في بحث تلاشى بقدر...

أجبتني وأتبعت جوابك بتنبيه لسرحاني المتواصل كلما فكرت في اللقاء وتفاصيله:

– نعم صورك ملاذ لمشاعري تجاهك في ظل غيابك وضبابية موعد اللقاء... هيييه أين سرح بك تفكيرك؟!!

–عذرا حبيبتي أفكر فقط في اللقاء...

– تذكرت اللقاء.. متى ستأتي فأنا هاهنا أتمزق في غيابك...

حينها جاءت عواصفك تباعا من شدة شوقك للقاء، بدأت شكواك من بُعدي والوحدة التي تَنخُر رفوف حياتك المتهالكة، رفوف قلما غادرتها الأرضة لتدع لك حيزا لسمّ أحلام شجاعة، تكبدت عناء الريح التي عصفت بعشك الأخضر لتتناثر أشلاءه تباعا، كابرتِ في موقف بطولي من بعدها رغم الوهن، كيف وقد كنتِ وحيدة قبلي والآن سند بمثابة الوهم، ترددين نشيد الاعتزاز به لاثمة على صوره كأنه الوطن، لكن لا وجود له عند الحاجة في ساعات الذروة، ولا خلال مختلف لقطات يومك، حتى حينما تطلبينه في

الهاتف فقد تمنعك الشبكة من لقائه فتزيد مصائبك، تتذكرين وجود حام لعرينك عند كل خطوة خارج بيتك، ومع معاكسة أرذل البشر، تتذكرين وجوده في العمل مع تلميحات الصحب والخلان بارتباط فلانة أو قرب زفافها، تتذكرينه مع كل إطلالة لوسائل التواصل الاجتماعي: فهذا طلب صداقة وهذه رسالة وذاك تغزل ومحاولة للتقرب بنيات خفية، كثُرَت شكواك الطبيعية من أنثى تحاول فقط أن تتقاسم مع من تحب ما تعانيه في ظل بعده عنها، تنقل له الجانب المظلم من يومها الحزين دون إضفائه للمحة تبقي ابتسامتها الفتية، وربما قد تزيد القصص التي تسردها له إثارة وتشويقا حتى تعجل بقدومه. كلها أمور عادية لم أعر لها بالا وأنا القابع في أرض قاحلة لا تزيد مشاعري إلا جفافا، بل ظننتها تمثل دور الطفلة التي اشتاقت لوالدها المتغرب، فقررت نصب فخ الإثارة بتحدثها بلكنة المريضة التي شارفت على الموت، حتى تستميل قلبه فيعجل سفره للقائها.

لم أعلم يومها كيف خرجت من جوك الرومنسي لأجيبك بلكنة الجبلي الجاف :

– آه حبيبتي تشتكين من أشياء أجدها تافهة أمام ما أعانيه يوميا في موطني هذا.. لكنني أخشى مشاركتك للأحداث حتى لا أزيدك هما لهمك..

ساد حينها صمت رهيب في الجانب الآخر من المحادثة، كأنه الصمت الذي ينذر بعاصفة هوجاء، كأنها أنذرت ولا سلام لمن اعتذر بعدها، كأنه الفخ الذي لن ينتشلك من براثنه إلا الخط الأحمر للنهاية، ثوان أدركت بعدها أني هدمت صومعة العشاق وعققت إمامها، أردت أن أصلح ما أفسدته لكن هيهات فالخسائر أضحت شتات، ترجلت من موقفي وانحنت كلماتي تستعطف جامّ غضبك:

– ألو.. ألازلت هاهنا أم أنك غادرتني؟

– نعم أنا هنا...

– أعلم أنني أخطأت بحقك حين استهنت بشكواك، لكنّ عجزي عن الوقوف بجانبك مع عتابك المتواصل أثار حفيظة غيرتي...

ساد صمتك كأنها الصاعقة، وتلعثمت كل اللغات التي أتقنها أمام إصرارك على جرميَ الشنيع، ساعتها أردت فقط أن أستبقيك ولا أمل في شفائك، حاولت بكل ما أملك لكن محاولاتي صدها غيظك من ما قلته، فحاولت أيضا لكن نفض غباري كيفما كانت النتيجة، وبينما نحن جلوس حتى وقفت مغادرة دون وداع، حاولت التشبث بثوبك فعاودت الاتصال بك لألوم تعاملك، فجاء ردك في قالب ممحوق تطاير رمادا أعمى أعين الحاضرين فكيف بالمتقابلين، تجادلنا دقائق كانت الطبيعة من حولي بجبالها وأحيائها على أعصابها، إلى أن أججت الوضع بسؤالي:

– أتريدين الرحيل الآن؟

سؤال معلوم إجابته في ظل الحرب القائمة أنذاك، سؤال لا تسأله لأنثى تطايرت شرارة الغضب من عينيها، سؤال تستفز به الطرف الآخر مهما حَسُنت نواياه، فكيف وأنا أعلم جوابك الذي عجت حروفه بلغط امتعاضك مما أقدمت على فعله.

أجبت بنارك المتقدة أنذاك:

– نعم أريد ذلك...

أقفلتِ الخط ولا مجيب، ورمش عينيّ يرتعش بشكل بدا للعيان مريب، فقصدت كوخي متواريا عن الأنظار مطأطأ الرأس كما حزنت لموقفي الشمس فتمايلت للمغيب، وصديق هاله منظري فعرج على إناء أمدني منه ماء للوضوء فالمغرب قريب، توضأت فصليت فتلاشت غمامة الغضب بشكل عجيب، وقررت بعدها في حزم مهاتفة الحبيب، رن الهاتف فإذا بصوتها المشلول يرد كأني غريب:

- ألو.. ماذا هناك؟

- عذرا حبيبتي فإني حقا مذنب نادم على ما قلته، وما أجرمته حقا في حضرتك..

- لا بأس..

- سأتركك الآن للخلود للراحة، وليكن بياض قلبك قد احتوى سواد جرمي..

- حسنا إلى اللقاء.. ليلة سعيدة.

- سعيدة حقا بصفحك وإن عكرت صفو مزاجك.. فعذرا مرة أخرى، وإلى لقاء أفضل من سابقه بإذن الله...

غادرتها أو غادرت صوتها المشحون، بعد أن ختمت فوضى لغوي بحرف موزون، غادرتها وأنا لا أزال أتحسس أنين جرحها من قلبها المكلوم، حتى وأنا أداعب وسادة أحلامي أرتل كلمات المحادثات كالمحموم، لن أسامح التفاصيل التي رسمت أفكار الرد الملعون، لن أسامح نفسي وسأظل أصارع عقلا ألهمني الرد بهكذا لغة في فرض غدا مسنون، تضاربت الشتائم ليلتها بين العلق والقلب قبل أن أنهك في حوار مجنون.

غلبني النوم وما استيقظت إلا والزميل ينتزع كتفي أفق واستعذ بالملعون، سرت متثاقلا لإناء جهز ماءه للوضوء، ثم اتجهت لمكان الوضوء بالمسجد والبال لم يسلم من ذكرى خطيئة الأمس، صحصحت بعد لطمة البرد حين عناقه، أسرعت فموعد الإقامة قريب على وشك، ومحاولات إبقائك ستبقى الروتين الذي سأزاوله في قادم أيامي على مضد، ولولا عمى القلب لأعملت العقل الذي لطالما حرّض، لكن لي بك وصل تناهت في فهمه العقد، فكيف بالسوي المتزن أن ينال من علاقة أعجزت المنطق وحيرت المقل.

بعد غفوة ما بعد صلاة الفجر، تناقلت أذناي الحركة الدؤوبة للقرية مع انفراج ضوء الفجر، فهذه طيور لم تجد مكانا لتزغرد فيه فرحا إلا على شرفة نافذتي، ودجاجات تتنافس

في مقامات الصوت وديوكها، وفتية على سطح غرفتي يتلون الآيات بطريقة لن تكاد معها تفهم ماهية الحروف فكيف بالمعاني، وحمير لا تنهق إلا حين بلوغها عتبة بابي كأنها تقصد إيقاظي، وذاك صديقي كثير الحركة بين أرجاء كوخنا كأنه يريد بث بعض نشاطه لأصارع خمولي.

أخيرا قمت فلملمت فراشي وبللت محياي ليليق بابتسامة البراءة التي سألاقي، قعدت بجانب الزميل الذي يتحدث حتى صباحا ولا يبالي، ورحت أرتشف كؤوس الشاي، وأغمس خبزهم في زيتنا في تلاقح للحضارات وتعايش للثقافات الغذائية.

توجهت صوب حجرة الدرس التي شيدت بعيدا عن أعين البدويين، ثقافة أخذ الحيطة والحذر من الآخر مهما حسنت نواياه، لذلك أينما ذهبت في أعالي الجبال بين القرى والمداشر، تشيد المدارس بعيدا عن مساكن أهل القرية، حتى أنك في بعض القرى قد تضطر لقطع مسافة كيلومترات لبلوغ القسم، أو تجد نفسك في الضفة الأخرى من نهر يعزلك عن الحياة وأنت في منفاك.

وصلت إلى متنفسي حيث بسمات الصبية تفرج بعضا من ضيقي، ضيق المكان الذي لازال التأقلم مع قساوة ظروفه يؤرقني، حتى حضرتي لتطول السهرة وتغدو همومها هما واحدا هو أنت، فتحت وكان مقصدي موضعا لطالما رنّ فيه الهاتف بعد تحسّسه نفحات الشبكة، لكن خاب ظني وأطرقت منحني الرّأس بعدما لعادتك الصباحية غفلت، وضعت متاعي وقررت التّناسي بمداعبة هذا وتلك بكلمات تخرجهم من ضيق الدرس كما تخرجني من ما أضمرت، تأكدت أن صفحك الغاية التي في صندوق أسود أودعت، لن أطالها مهما حاولت لكن مع ذلك متشبث بقشّ ما قلت، رن جرس الاستراحة في ساعة عقلي فأطلقت سراحهم، ثم أطلقت سراح رسالتي التي تعودت فيها مغازلة أبوابك مهما غلّقت، أرسلتها وحملقت في شاشتي أنتظر ردك لكنه تأخر أو أنك لإرساله

أخّرت، تناولت كسر خبز كان بلعه صعبا، لولا رشفات الشاي التي تجرعتها بمرارة نكهاتك التي في القلب أوقدت، لا أتذكر يومها متى جاء ردك أو لربما ما رددت إلا على مكالمتي ومتثاقلة أجبت.

توالت محادثاتنا بعدها بإحساس أقل ما يقال عنه أنه مبهم، رد بارد منك على رسائل الصباحية إن رددت، ففي الغالب تعذرت برصيد أو دراسة أو انشغال أو شيء من هذا القبيل، وكلمات محسوبة الخطوات خلال مهاتفتي، رغم محاولاتي انتشالك من مستنقع جمودك، كنا ساعتها على بعد خطوات من إجازة خططت خلالها زيارتك لكنك أخلفت، قلت أنك مسافرة أيضا فسألتك لعلي أتعقب أثرك فأحظى بفرصة لقائك، لكن ردك جاء ليطفئ حماستي:

– لا أعلم ربما هنا أو هناك المهم أني لن أبقى حبيسة موضع واحد..

– أين بالضبط؟ فإني كنت أخطط لزيارتك في معقلك..

– ليس الآن.. لست على ما يرام.. ليس لي مزاج الترتيب لملاقاة أي كان...

كان ردك بمثابة اللطمة التي أدارت أحلامي، فتمايل شموخي وانحنى ظهري وغيرت وجهة آمالي، كيف أسوق سخطك عني إلى سجن طيشي فتغفري زلتي؟ كيف أصنع من جفافك روضة أنعم فيها بصفحك المعهود؟ كيف ألقاك فيصيبك قوسي بسهام سحرية تعيد تدفقك لبحر كآبتي؟

دام صمتي لدقائق وأنا أحاول النطق لكن دون جدوى، كانت كلماتك بمثابة الفاجعة التي أكلمت الفؤاد فتداعت له باقي الأعضاء بالحمى، تحدثت في الجانب الآخر لا لشيء إلا من أجل إنهاء ما بدأته، أردت الإجهاز على جسدي المتهالك بضربة قاضية، قررت التعذر للرحيل عن معركة أنهيتها قبل الأوان، تماثلت لقرارك دون حكّام فودعتك على

أمل جولة أخرى أستعيدك فيها.

توالت أيام الأسبوع بعد نزالك متثاقلة، كأنها تدب في جسدي دبيب الرمضاء الذي طالني من جفاءك، أصبحت أراسلك متوسلا صفحك عني، لكن قسوتك فاقت تذللي، تعددت الطرق لربط وصالك لكن حدّة كلماتك قطعت السبل، لا أعلم أكانت الوسائل المستعملة للنّيل منك في مستوى تطلعات المحبين، أم كانت بدائية كما الحياة هاهنا بين هذه الجبال؟ لا أدري أستحق جرمي كل قسوتك أم أن العقاب كان من جنس النية التي لمضمونها استنتجت، كل ما أعلمه أنك التجربة الأولى التي اهتزّ لها الفؤاد فبات في غير موضعه، الهمّ الوحيد الأوحد الذي ارتبطت به كل تحركاتي وسكناتي، كل أحلامي وخيباتي، كل أوجاعي وبسماتي، بل كل تفاصيل حياتي.

## الفصل الثامن عشر

سافر.. فبين المقاعد والعربات حكايات تُسرد، وبين القرى والدور روايات تُختزل، وعلى الأعتاب والشّرفات شهادات تُدوّن...

حلّت العطلة فسارعت لأُجاري رتمها على عجل، حملت المتاع الذي ما وظب إلا في ساعة متأخرة من الليل، ناديت الصديق أحثّه الاسراع لبلوغ العربة لعلّنا نظفر بمقعد مريح، فقلّما ننعم به لأن الحجز وإن كان بأيام فقد يبطله قرار نسوة أو طارئ فاستسلام، تقدمنا نحوها لنخيب بعدما علمنا أن هناك نسوة سيشاركننا الرّحلة، لم أكترث فاليوم رحيل وبعده غياب عن القرية لأيام، صعِدت في الخلف منتشيا ببداية العطلة لا ترهبني نظرات من حولي من البدويّين ولا أسئلتهم الفضولية، ضغطت زرّ الاشتغال لموسيقى هادئة أبدعَت في عزفها مخيّلتي، أردت نفض ضجيج محادثاتهم الممزوج بصوت حيوانات شاركتنا المكان، أغمضت عيناي سارحا في مخططات رسمتها بديلة عن سابقة ضحدتها، تذكرت جفائك فقررت مغازلته علّ قلبك يلين في هكذا ساعة، أخرجت هاتفي فإذا بالشبكة منعدمة الضمير، لا يهم فالمهم أن ضمير الحرف سيحييها، راقبت وجوه من حولي بنظرة خاطفة، حتى لا يعلم أحدهم حتى حيثيّات قد توهمه بارتباطي بك، قربت هاتفي من محيّاي وبدأت الكتابة مواريا شاشته عمن حولي، رغم أني أعلم يقينا أنهم لا يجيدون القراءة، لكن تحركات أناملي وطريقة مسكي لهاتفي، وحتى تبسمي حينا وذبولي أحيانا أشياء قد تجعلني محطّ ريبة بين من حولي، أرسلتها متنهدا كأنني كنت حاملا وزرها لأيام، رفعت رأسي لأظن في لحظة ذهول أن كل الركاب حتى الحيوانات قد اكتشفوا أمري، الكل يحدّق بي دون دليل ودون تصريح بماهية ظنونهم، رفعت رأسي غير مبال فالمهم أنتِ، المهم أن الشبكة أطلت بعد مرتفع والإشعار بوصول رسالتي قد ارتفع صداه إلى أذني، تنفست الصعداء وملأت رئتاي بكومة هواء بعدما قلّ ضجيج العربة مدركا أننا بلغنا طريقا معبدة. دقائق بعدها تعالى صخب المدينة الصغيرة إلى مسامعنا، فتوقفت العربة وتدفقنا أكواما البعض بمتاعه والآخر بحيواناته، انحنيت أوظب هنداما ما عاد يوحي بفوارقنا الاجتماعية، كل من في العربة سيان لولا، جلباب ميّز نفسه عنا فما احتاج

تعديلا بعد هبوطه، رفعت رأسي فإذا نظرات من حولنا توحي بغرابة مظهرنا، ضربت باب تحديقهم عرض الحائط، ووضعت حقيبتي على كتفي ثم انطلقت والصديق، لا يهم ما طال ما نرتديه من غبار، أو حال شعرنا الأشعث وما علق به من قش، المهم ما عم قلوبنا من آمال فسال فيضه على محيانا بسمات.

قصدنا مقهى لتعديل الواجهة وترتيب أوراق الوجهة، عدلتنا مرايا مكسورة لمراحيض مغلّقة، يُمنع الدخول إلا إن كنت زبونا أو من معارف صاحب المفتاح، جلسنا على كراسيّ تغيرت ألوانها بتعدد مستعمليها، فجاءنا نادل بوزرة حالت للون الأسود بقارورة بها سائل يظنه مطهّرا، شرع في مسح المائدة التي لا مجال لإعادة لونها الأبيض إلا بالصّبغة، ومنديله المتسخ يتقاطر شيء من سائله على حواشي المائدة فتحاشيناه، وخاطبنا بلغته الأمازيغية المتسارعة لأترك أمره للخليل، احتسينا شايا، وتناولنا مقلاة بيض ما نعلم مصدرها، فالطعم أنسانا ما رأيناه، وعددنا الدقائق في انتظار عربة أخرى تقلنا إلى أهلينا وأنت الأهل لكن ردك عن رسالتي تأخر وتأخرك أبدا ما عاتبناه.

في غفلة من صديقي هاتفتك لكن الخط أغلق بعدما أبيتي، تعددت الأسباب وجفاءك واحد كما عزمتي، المهم أني ركبت الحافلة المتجهة إلى أهي بعدما بحبل العقاب اعتصمت، حمّلت متاعي وغلّقت أذناي بسماعات رفعت فيها صوت المقرئ الذي ما عرفت، واتكأت قبل انطلاقها أطلب النوم عله يطفئ نار الشوق التي أضرمت، فغوت دقائق لأستيقظ على وقع دربكة الركاب وما حضرتي، فانتظرت سكونهم المحتمل لتتعالى نغمات الموسيقى الفلكلورية من المذياع، وتهتز العربة لها ولسكون قلبي ما هززتِ، أخرجت هاتفي للتأكد رغم أني كنت أتحسسه كل حين لكنك لظني مرة أخرى خيبت، أدرت محيّاي للنافذة مواريا خذلاني وقرّرت النوم علّه ينسيني ولو لحين حقيقة ما أجرمت.

كنت أحاول نفض لغط تلّقته أذناي عبثا من أفواه الرّكاب، متعالية أصواتهم يحاولون

مجاراة السّائق، سبعيني أبطلت مفعول مسمعه أصوات محرّك عربته المتهالك، لتخالط أوتار صوته بحة من توالي كلماته المتعالية، أسمر البشرة حتى فاض لونه على جوانب طاقيته البيضاء التي ما عادت كذلك، يرتدي جلبابا أزرقا فوقه معطف يكبره أظهر معالم بنيته الهزيلة، لازالت مشيته متزنة كأنه رجل أربعيني يقارع جيلين قبله، بين الفينة والأخرى يحكي بطولاته من كتاب التاريخ الذي ما قوِي على تأليفه، لكن الأحداث كلها موشومة في ذاكرته كأنها وقعت البارحة، لا تهم المصداقية مادام كل من حوله يصغرونه سنا وإن كانوا من أهل قريته، قد يحفظ بعضهم قصصه عن ظهر قلب من كثرت تنقلاتهم برفقته، وقد يعلم بعضهم الآخر أنها ليست إلا قصصا مفبركة، قد تؤنس وحشة الطريق القاحلة، حتى أن بعضهم يتغامز سخرية من الأحداث، وقد يجاريها بعبارات تزيد الأمر تشويقا، كنت أصحو على ضحكات بعضهم الشّرّيرة كأنها تسخر من تعلّقي بوهمك، أفتح عيناي كلما توقفت العربة كأنك الوجهة المقصودة اليوم، أطيل النّظر في الوجوه المتزاحمة للقاء عزيز وصل اللّحظة، كنت أبحث عنك حتّى من على شرفات المنازل المزهرة نساء على جنبات الطريق، نساء تلثّمن لا أظنّ حياء بل اختبارا للواصل، علّه يكتشف الأهل من وراء حجاب، كانت أعينهم تغري كما حركاتهم الغير مقصودة أحيانا، أرتشف النّظرات الخاطفة لأعود خائبا إلى عالمك فأسارع حاملا الهاتف الذي أهملت، ردّني خائبا فأغمضت عينيّ قصرا وأقسمت أني نائم لا أبالي حتّى ألاقي أمي فأعانقها بمحيّا غير المحيّا الذي أذبلت.

توالت وقفات العربة، ليتساقط الركاب بمتاعهم من على سقفها تاركين أماكنهم لصاعد جديد، قد يكون آدميا بمتاع، كما قد يكون حيوانا مكبلا بحبل، لا تهم حمولة العربة واستيعابها للصاعدين، بقدر ما تهم الرحلة التي لن تعوّض ذاك اليوم إن فاتتك، أغفو وحين أستيقظ أتحاشا المحادثات مع أي كان، مغمض العينين أدّعي النوم هروبا من حوارات لا تدخل ضمن قاموس اهتماماتي، شغَلتِ القاموس وكلّ كلماته ومعانيه

ارتبطت بحبل تعلّقي الوثيق، مهما فررت منك أجدني أصادفك في مجمع الكلم الذي ملكت، أتقلّب يمنة ويسرة حتى أتخلص من آلام الرقبة والجلوس لساعات على مقعد يشاركني فيه الزميل، تكدس الخلق كما المتاع والحيوانات داخلها وفوق سطحها، لكن التذكرة واحدة لا يتغير الثمن مهما تغيرت الدرجات، الخلق فوق السطح أقل درجة وقد يراهم الآخر ذوي حظ أوفر، فمنظرك وأنت تعتلي السقف متكئا في الهواء الطلق تستمتع بروعة الطبيعة على امتداد بصرك أمر مغري، قد تتلطخ قسماتك بحبات الغبار المتطاير، كما قد تصطدم عيناك أو فاهك المفتوح بحشرات لم تجد فرصة لتفاديك.

نستسلم ونستكين لكل الصعاب التي قد تلقانا في هذه الحياة، مقتنعين بأنها أقدار محتومة لا مناص منها، قد نخيب لنثق بحذر، وقد نسقط لننهض بهمة، وقد نطعن لنشفى بوجع، وقد نبكي لنبسم بورع، وقد نلتقي لنفترق بوداع. لكن كل الآلام قد تنتقي ضمادا يسكّن من وطأتها ماعدا الحب، قد يخمد بركانه لدقائق أو أيام أو حتى شهور، لكنه سرعان ما ينفجر حسرة أو شوقا، لا ضير وإن أجرمت أو كسرت أو خنت حتى، الضير أنك لن تعود مهما حاول من هشمت أضلاعه استردادك كيفما غدوت، سيجدك -وإن خالف توقعات الخلق ومنطق البشرية وإعمال العقل- قد مضيت دون الالتفات لماضيك، سيجدك قد استقلّيت أول قطار صادفته مهما كانت الوجهة، قد تعلقت بأول بديل كأنه طوق النجاة الذي سينتشلك من فشلك، سيجدك قد أزهرت في غير أرضه، وقد وعدت بل أقسمت أنك لن تفعل مهما تلبدت علياءك، منفرج الأسارير بابتسامتك التي ضاقت بها عينيك من شدة اتساع وجنتيك، بكلماتك العطرة وحرفك المعسول الذي لطالما هيجت به مسمعه وفاضت له مشاعره، فاتحا ذراعيك لغيره لتتلقفه من همومها وتطبق يداك لتخبره أن لا مكان له بينكما، هامسا في أذنه كلمات أربكت تفاصيله لتتطاير خصلات شعره الحريري، مواريا شفتيك اللتين أُرغمتا على الصمت لتتحسسا مواضعا من عنقه، سيدرك ولو بعد فوات الأوان أنها طريقتك المعهودة التي تستدرج بها فرائسك،

مع ذلك ستجده يخلق لك أعذارا ليستقر على أن الأمر ليس إلا قدرا، لست إلا شخصا أراد لكن الله فعل ما يريد، لازال يحبك، نعم بتفاصيلك التي لازالت محفوظة في ذاكرة هاتفه وبين ملفات حاسوبه وفي محفظته وعلى جدران غرفته، لازالت هداياك معلقة في عنقه معتصمة بمعصمه، يرتديها أو يتصفحها كل حين حتى يرتوي منك وإن أخلفت موعد السقي، يناديك في أحلامه ليتقاسم معك أفراحه وأتراحه، يلتزم بمواعيد اللقاء المسطرة سلفا لتجده واقفا على "بروفايلك"، يراجع المحادثات ويتطلع إلى الصور بتمعن كما لا ينسى أن يطرب مسمعه ببعض تسجيلاتك الصوتية، يزور بين الفينة والأخرى مدينتك ليتبرك بملامسة جدرانها، يقلب وجوه الخلق لعله في أحلاها صدفة يلقاك فيبلّ ريقه من ماء مقلتيك، نعم يحب لا يكره، قد يجن برحيلك، وقد يقلب موازين حياته قرارك، وقد يموت بعد استقلالك كأنه أراد استعمارك، لكنه يموت واقفا وقفة الجندي مؤديا التحية بعد انتهاء مهامه، دافع بكل ما أوتي من قوة عن بقائك لكنك أردت استقلالا فوهبكه بكلّ حب.

أخيرا حطت بنا عربة "دا موح" -كما ينادونه- الرحال، وتدفق الركاب من على سقفها لأستيقظ على وقع الزلزال، فتح الباب بتثاقل فإذا جوقة من الناس تتحرك في خفة وأنا مندهش من المشهد كأني تمثال، صاح بي الزميل أسرع واحجز لنا مقاعد فالعثور على سيارة أجرة مستعدة للانطلاق أمر محال، في هكذا مناطق لا تدب الحياة إلا في حضرة السوق الأسبوعي حيث أن الوافدين قد يقطعون أميال، حجزت مقعدين بعد عناء البحث عن رفقة سرّعت الرحلة إلى المدينة فانطلقنا على عجل، غفوة مباشرة في مقعدي فالهاتف ما رنّ وقلبك ما تكلّف عناء السؤال.

## الفصل التاسع عشر

التخطيط المحكم هو السبيل الوحيد لنجاح العلاقات البشرية، مهما كانت الصدف سخية، ومهما كانت عفويتك صادقة..

قرابة ساعة وصلنا بعدها المدينة المزخرفة بالجبال، فودعت الصديق، وقلت في نفسي فرصة لمداعبة صوتك رغم كلماتك الثقال، رنّ الهاتف لدقائق لكن لا مجيب، ورغم ذاك عاودت الكرة برزانة محب واعتدال، أخيرا استجاب القدر وعمّت الحياة أرجاء الواحة القحال، رددتِ بعذر تجاوزتُه بالصيغة المباغتة بكلمة كانت الفيصل الذي أرّقني الليالِيَ الطوال:

– اشتقتك.

ساد صمت رهيب في الجهة المقابلة كأنك لست على عهدك الحلال، كأن ما اتقد في قلبينا لسنوات أطفأه غضب ثوان قلال، كأن الشك خالط اليقين فمُزج ماء الحب بوحل القِلال، تمرغت الكلمة بسمو معانيها في الثرى وارتطم ردك البارد بحرارة الإقبال، توقفت وسط الشارع أنتظر تلويحك بإجلال، توقفت والصدمة تعلو قسماتي من لطمك لكلمة كانت بالأمس لمسمعك أعذب موال، لم أستشعر اندهاش المارة من هيأة الأشعث الأغبر الذي ما همته الحمولة التي ما وضعها قدر أهمية الاتصال، أخير رددت بقلب بارد متجاوزة الشوق ومنكرة حتى الصفة وببغثة غير التي أوجدتُ لتسألي عن الحال:

– المهم كيف حالك؟ وأينك الآن؟

بقيت بفاه مفتوح في الشارع حينا أقف من هول حديثك، وحينا أمشي مترنحا بعد غفلة أوقفها منبه سيارة، أنتقي من صفحات قاموسي أعذب الكلمات خوفا من سخطك، أجبتك بكل تلقائية حتى لا أفقدك بالمرة علّه يلين ولو بعد حين:

– أعلم أنك لازلت حاملة غيظ آخر نزاع، وأدرك أني مذنب، لكنني أعي أن قلبك أكرم من جرمي، فاغفري من أجل ذاك الحب الذي أكنه لك..

- لا بأس.. خبرني عن حالك؟

- بخير والحمد لله ما دمت أنت بخير..

- أنا بخير والحمد لله، أينك الآن؟ أين وصلت؟ وكيف كانت رحلتك؟

باشرت سرد وقائع الرحلة منذ البداية مهتما بالتفاصيل، وبالكاد أتنحى عن غيابك المحزن، وأبل القصة ببعض الدعابة راجيا استرداد مرحك ولو القليل، لأنعم أخيرا ببعض أنفاسك المهتزة وتتوالى الضحكات والقلب للحنين يميل، فأبطئ المشي يجرني شوقك لأؤخر لقاء الأهل ما بعد الخليل، نثرت بعض الكلام المعسول عفوا فأقبل لسانك مع ملقّن ودليل، حيّة كلماتك ليست كالمعتاد كأن الظرف أجبرك التقشف كما التعديل، أسرّني تقشفك فقد أحيى جزء من روحي المرحة ولو ألزمني صدك دور الذليل، تحادثنا لدقائق معدودات ظننتها ثوان من شدة لهثي خلف عودك الذي ظننته أمرا مستحيل، استمحتك عذرا بعد أن بلغت الدار بوجه مكشوف كأنه تهلل فرحا بلقائهم وإن كانت الفرحة بعدك السبيل، ودعتك على أمل اللقاء ولو بعد حين فالغاية أنت وإن تعددت الأسباب وتغير الوسيل.

بلغت باب الدار وكلّي شوق لجنباتها، لصنبور تفتحه فيتدفق ماءه عذبا زلالا، لتستمتع بحمام دافئ حيث تنساب المياه على جسدك المنهك، لأزرار تضغطها فتنال مبتغاك عفوا دونما جهد، لشبكة تملأ هاتفك رسائل من خيرة القوم وتفيض عبارات السؤال، لأكل قد نضج بلمسة حنية من منبع الحنان، لقهوة بنكهة الأعشاب الجبلية التي أحضرتها كهدية من أم لتلميذك، هنا تذكرت الجبل وبسمات البراءة، اشتقتهم وإن كان فراقهم بالأمس فقط.

راسلتك بعد حين من غرفة مغلّقة كأني لا أريد فيك شريكا، تأخر ردك فهاتفتك مباشرة وبلا مقدمات، بعد التحية والسؤال عن الحال سألت عما تفعلينه باحترافية

مشتاق:

– ما الذي شغلك عني؟ لماذا "برافايلك" بلا حياة؟

– أنا الآن في طريقي لإحضار بعض أغراضي من السوق..

علمت حينها أنك تسيرين وحيدة في موقف كان لزاما عليّ مرافقتك. آه لو كنا نسكن في درب يحتوي بعضا من شتاتنا، في حي قديم من أحياء مصر العريقة، حيث الأزقة الضيقة والأسوار تنحني لتقبّل بعضها، حيث الشرفات ممتدة تريد التشابك لعناق دائم، ووصال على شكل قنطرة يربط دارا فرقتها الأقدار، وشبابيك تفتح في تناغم بلحن واحد وفي وقت واحد، البعض يطلب أشعة شمس أشرقت، والبعض الآخر يطلب ود شمس تقطن في الجهة المقابلة من نافذته، فأطل على غرفتك الزاهية كأن روحك انسابت على الألوان فعادتها، وتفاصيل شخصيتك الصامدة رسمت للشقوق تصميما فرممتها، حتى مواضع الأشياء مرتبة، كأنك تغافلت ترتيب فوضى حياتك في سبيل غرفة نالتها.

أستيقظ على وقع صوت حصى صغيرة تدقّ شباك، لأقف منتصب يدفعني الشوق لأراك، أفتح دونما النظر إلى المرآة فأنت مرآتي، قد يدعو مظهري للضحك لكنني أهوى رؤية بسماتك، ما أروع الاستيقاظ على قسماتك المتناسقة عفوا دون مستحضرات، عاصفة عشقي لتفاصيلك المملة فاقت التوقعات، لذا لا أنفك عائدا للشرفة أنتظر مرورك في الدار لأستنشق من ريحك نفحات، ثم ألثم في ساعات انتظاري بعض رسائلك القديمة مرورا بالكلمات، أتعقب التغزل في كل سطر أنشد مواويل من زينة العبارات.

أبني في غيابك قصرا نفر خلاله من زحمة الناس لنعيش للكرم حياة، لا خدم ولا حشم فقط أنا وأنت ولنزيّن خلوتنا بحيوانات، وعلى مشارف نوافذ القصر مسبح وسط بستان تتعالى فيه الأشجار لتحجب فضول المتطاولات، لا تلفاز ولا وسائل إلكترونية فقط كتب وجرائد ومجلات، نحيا حياة البدو لنرتشف من حكم الماضي قدر المتطلبات،

نتقاسم كل تفاصيلنا المملة لنتشرب من عوالمنا ونرتوي من شوقنا حتى الهمسات...

أجبتك بعد أن سرحت بي أفكاري إلى حلم مستحيل، رغم أني أؤمن أن لا مستحيل في الحياة، أجبتك في غفلة من إمكاناتي:

– تمشين وحيدة، إذن هل لي بمرافقتك؟

ابتسمت من ثنايا قلبك الذي هتف في صمت لكنك غيبت العبارات، أجبت في قالب حييّ:

– أسرع، بل طِر فإني أحتاج فعلا لرفقة..

انتابتني رغبة كبيرة في اجتياح الفضاء للقائك، استرجعت ذكريات الصّبى لأنعم بصديق مثل "عبقور" –تلك الشخصية الكرتونية التي لطالما كانت الحلول مخبأة في جيبه– ليحل معضلة المسافة الفاصلة بيننا، أو آلة كآلة الزمن –تلك الآلة التي قربت المسافات بين الكواكب وكانت قادرة حتى على التنقل بين الأزمنة– لتبدد بعدك، لأَلْقاك على حين غرة أيّما ساعة، كلها متمنيات ومناي لقاءك غدا هنا أو هناك.

أجبت بدعابة التمني، أساير شغفك بتعطشي لملامسة كفك، فقلت في حزم:

– ها أنا ذا ممسك بيدك أرافقك، فلتنظري أمامك ولا تلتفتي لأحد...

– حسنا فلنمضي سويا لا نبالي بنظرات الخلق الفضولية..

– أتمنى حقا لقائك في أقرب فرصة..

– أنا غدا مسافرة لمدينة "أكادير" لملاقاة خالي..

– إذن فلنلتقي هناك، فغدا تبدأ رحلتي..

– لن أعدك بشيء، فالأمر ليس بالهين كما تظنه..

تحادثنا إلى أن فض مجمعنا نفاد رصيد، حاولت وحاولت إقناعك بشتى السبل لكن دون جديد، ودعتك لأعود أدراجي لأحضان الأهل شارد الذهن، أفكر في كيفية النيل من تعنتك حتى يلين قلبك، قررت في غفلة من الجميع أني غدا مسافر لغرض، الكل استنكر لأحزم متاعي ضاربا استغرابهم عرض الحائط، تنقّلت في جنبات الدار لا أستقر في مكان كأني ضقت بها ذرعا، ما يقلق راحتي سوى ساعات الانتظار التي سأقضي هاهنا قبل الانطلاق صباحا لاستقبالك، حاولت شغل النفس عنك لكن الأمر صعب كلما للساعة نظرت، كأنك أهديتنيها لتقض صحوتي قبل مضجعي، حل الليل فقلت ها قد اقتربت، حملت الهاتف الذي خبأته عن الأنظار بوضع صامت حتى إذا اتصلت، وصلت حبله بالشبكة كي ألقاك، فراسلتك وانتظرت ردك فما قصّرت، تسامرنا إلى أن زارك النوم وللوداع شاورت، فاستبقيتك دقائق أتغزل بمفاتنك التي أبديت، إلى أن ضاق بك المكان وبحزم قررت، فلوحت مودعا ومتمسكا بأهداب طيبك الذي نشرت، إلى أن غاب طيفك خلف الأطلال تاركا بعض آثارك التي خلدت، فعدت كعادتي لمحادثاتنا القديمة أتمرغ في مجمل ما حلّيت، كلمات مزخرفة وعبارات منثور حولها ورد مما سقيت، وصوتك الرنان لازال خالدا يدغدغ الفؤاد لحنه كلما عزفت.

قمت بعدك لألملم متاعي في حقيبة مستعدا للسفر غدا، ونمت بعدما أنهكني التفكير في ترتيبات اللقاء، لأحلم بجلسة على مشارف بحرها الهائج، كأن الأمواج تتراقص فرحا لأول لقاء، لا أحد سوانا يستمتع بهكذا منظر في مثل هذا الوقت، نفترش الرمل لنعانق الطبيعة بتجلياتها، صوت البحر الممزوج بأصوات النورس المحلق في الأفق، بمحيا غدا ورديّ اللون تراقبين إطلالة الشمس رويدا رويدا، بينما أراقب شمسيَ التي أحاول التسلل لمعانقة كفها، إلى أن بلغته فانتابتك دهشة البدايات فاجتحتها، لتتشابك الأنامل وبشدة أحكمتِ قبضتك كأنك تقولين لا فراق بعدها، فالتفتُّ وإذا بمقلتيك تترقرقان دمعا لعله الفرح فاض ففاضتا معه، مال الجسدان عفوا لجاذبية الحب الذي أخيرا انفجر،

وبللت الريق من رحيقك الحلو فنال منا البحر وما عذر، تطاول على اللحظة وما أعرناه بالا حتى لجسدينا غمر، انتفضنا نركض في نشوة كأنها الحياة انبثقت من غيبوبة بشر، كان الماء ينساب من ثوبك المبلل ليداعب نعومة جسدك كأنه الوبر، كان مظهرك يغري بعناق لا بعده فراق ولا من سجنه مفر، فاتنة أنت ببساطتك المعهودة فكيف ببساط البحر الذي مازجك فعثر، سرنا أميالا على طول الشاطئ لم نعر اهتماما لموقعنا ولا للوقت الذي قضيناه سويا فغدر، إلى أن داهمتنا الشمس التي انحنت لمغيبها فانحنيت لمتاعك منذرة بالرحيل فلوّح الكف والفؤاد صبر.

استيقظت من حلمي على وقع المنبه، وفي نشوة لملمت الفراش واتجهت للحمام، صادفت مناداة الأم فقبّلت الجبين لأفتتح اليوم بخير الأفعال، صليت ودعوت بصيغة الجمع حتى ألقاك في أحسن الأحوال، تناولت فطوري وقلبها الزاهي لا يكفّ عن الدعاء وهي تحوم في المطبخ تحاول أن تؤنس وحدتي، دعوتها وبالكاد أقنعتها بأن ترتاح فقد وفّت حقها وكفت دورها، ودعت الأهل في أسى وحملت حقيبتي مواريا بهجة انتظارك في الضفة الأخرى، هرولت لبلوغ المحطّة وأنت المحطّة التي عزمت أن لا بعدها رحلة.

## الفصل العشرون

لا تصرخ في وجه النهر ما دام القابع في الضفة الأخرى أخرص..

ركبت الحافلة فقررت أن لا أشارك أحدهم مقعدي حتى لا ينال من طيبك نفحة، إلى أن صعدت إحداهن فقررت الجلوس بجانبي فلم أمنعها ما دمتِ الحدّ الفاصل بيننا، قررت محادثتي فصددتها لأن طيفك لطالما هدد بنظراتك الحادة كلما بالغيرة تجملت، صرفت النظر عنها وتأملت في النافذة لأرسم لنا موعدا أنيقا، تصفحت ذاكرتي لأبحث عن لقطات للمواعيد الرومانسية التي أثّرت فيّ في الماضي، ما بين فيلم ومسلسل تلفزي تنقّلت لأحظى باللقطة الأجمل، تذكرت روايات قرأتها فمالت نفسي لإحدى اللقاءات المكتوبة، كانت الروايات الأقرب للعلاقة التي جمعتنا ما حاكت تفاصيله أنامل "أحلام"، جل البداية كانت تحلو في عوالم الصدف، جميل أن تلتقي بزهرة فاتنة في صحراء قاحلة، أمر سيجعلك تقف لدقائق بل لساعات تتفكّر في تفاصيل الماضي البعيد، تسترجع الذكريات لحظة بلحظة، تستمتع بما نثره الإعجاب في عيوننا من مساحيق الجذب، تتبع الخطوات المتمايلة في تناسق كأنها ترقص على أنغام السعادة، تنبهر بسكناتها قبل حركاتها، تختلس النظر من خصاص النوافذ حتى تنعم بفرصة غبيّة، تتفكر في العفوية التي غيّبت الجرأة، لتتمعن في الرتوشات الساذجة التي حالت دون البوح، فتطأطئ رأسك خيبة بضياع الفرص تواليا دونما استفادة.

كنت لا أرى بعدك أحدا لا أعلم ألأنك الأبهى أم أنه الحلال، أم أن الثقة التي منحتكيها انعكس ضوؤها على مقلتي فأصابني عمى الجمال، أم هو الدين الذي نستحضره كلما أردنا أن نداري الخلق عن محتوى القِلال، أو ربما القش الذي تمسكت به على طول بحرك الهائج مستحضرا عبارة "الحب أعمى" فغير المقال، كان الصد بشتى أنواعه الحاسم في جل المحادثات معهن مهما كانت درجة الإقبال، كنت لا أدقق في الملامح حياء قبلك فزاد الأمر بعدك حدة كأنك النّوال، تبت بعدك عن المخالطة فطيبك مازج كل الحقول فعبق اسمك في كل الغلال، شيء منك يمسك يمنايَ ليصحبني لمروجك البعيدة ما وراء

التلال، حيث خضرة قلبك أنعشت آمال الحياة بداخلي واستمتعت بمثل هكذا احتلال، تقتاتين ثمارا نضجت حالما أشرقت فارتوت من لعابك العذب الزلال، وزهور تفتحت بعدما لامست جسدك الناعم فتدفق اللقاح وانتعشت دواليب النّحّال، حتى العشب الذي كسى جنبات الروضة استقام لملمسك الناعم مستأسدا يأبى أن تطأ قدماك الأرض فصار نعال، الكل يسعى خلف عطائك فهبت ريح لتتلاعب بثوبك المنساب على جلدك الحرير وتداعب الخصال، ثم تمرّدت حبّات التراب متطايرة لتلثم أخمص قدميك وحقّها تنال، وفجأة تحلّقت المصائب تواليا في ليلة زفك فيها القدر مخالفة حظر التجوال.

وصلت المدينة ظهرا بعدما غلبني النعاس على طول الطريق، لأنزل متثاقلا من حافلة تخلف بعض ركابها لتعوضهم وجوه أخرى، وقفت لدقائق أحمل حقيبة الظهر وأتأمل المحطة المزدحمة بالخلق، كأني أتساءل أين أنا؟ ولم أنا هنا؟

أصابتني انتباهة مباغتة لأحمل هاتفي وأركب رقما أحفظه عن ظهر قلب، رن الهاتف مرة واحدة كأنها تنتظر في الضفة الأخرى منه لساعات، جاءني صوتها مستعجلا سائلا، كأنها تتفقد وجهي وتلامس ملامحي وهي تتحدث عن حالي بعد الرحلة :

– السلام عليكم... ألو ولدي هل وصلت بخير لوجهتك؟

– السلام عليكم ورحمة الله.. الحمد لله "مّا"، أنا بخير أنا الآن في المحطة...

– الحمد لله على سلامتك ولدي، والدك وإخوتك يسلمون عليك...

ودعتها وهي لا تملّ تدعو في كل وقت وحين، سرا وعلنا، ودعتها والدعوات تتوالى في الضفة الأخرى فأجلت ضغط زرّ الإنهاء، ودعتها لأركب رقما آخر أحفظه، كلها أرقام محفوظة في ذاكرة هاتفي لكنّها اللهفة لسماع صوت المتحدث، رنّ الهاتف لمرّات ومرّات، عاودت الكرّة مع كلّ عذر اختلقته لأخيب وتخيب اللّهفة، فأسلمت الوجهة لرقم في

ذاكرة هاتفي حتى يستقبلني لأيام مكوثي هاهنا، أجابني فناولني العنوان الذي ناولته لسائق سيارة الأجرة، بعد السلام أطبق الصمت الأفواه وأسلمت وجهي للنافذة.

وصلت الشقة البسيطة التي كان يقطنها صديقي رفقة شباب آخرين، شقة تفترش باحتها نعالا وأحذية كأنه مدخل مسجد، نظام كراء المنازل للطبقة الفقيرة، طلبة قد يتجاوز عددهم الثلاثين طالبا بمعدل خمسة أشخاص أو أكثر في الغرفة الواحدة، يشتركون الحمام كما المطبخ، المهم توفير بعض المال من أسعار الكراء المرتفعة في هكذا مدن، دلني صديقي على غرفة تكدست فيها الأفرشة دليلا على أصحابها، سلمت على ثلاثة شباب كل منهم منشغل بهمّه، رحّبوا وأقعدوني في مكان لابدّ أن صاحبه غائب ولو لحين، نزعت معطفي وبدأت ألملم أطراف قميصي ليسألني أحدهم :

– أتريد وضوء؟

– وقفت كجواب..

– ارتح، سأقوم بتسخين الماء لتتوضأ..

شكرته، وبحثت عن هاتفي لعل المنشود قد راسلني في غفلة مني، حركت رأسي سلبا في حوار تعسفيّ بين قلب حنّ لصاحبه، وعقل لطالما حذر من ضبابية ما ينتظره، صرفت النّظر عن لومه الذي اعتاده كلّما استحضرته للقائك، لا أعلم سبب انزعاجه من ارتباطي بك، أفنيت الساعات أحاول تطييب خاطره لأنعم بنبرة قبول منه على ما أنا مقدم عليه، لكنه الفشل يخالج نظراته، كأنه الوالد الذي أبى أن تتم الزيجة ولو على جثته، سخط يربك تقدّمك ويشعل شرارة ريبك كلما غبت بالساعات.

أسلمت قلبي لمعذبه، وبدأت أخطّ بحذر شديد كلمات لأفلح في جذب اهتمامك، أكتب الحرف لأردّده لا أعلم أأبتغي الحفظ؟ أم هي نظرة استشراف من فنان لما رسمه،

أنتقي من قاموسي أرقى العبارات لأحظى بجميل ودّك في عزّ نفورك، أكتب وأمحو ثم أقوّم لأتخيل من بين الردود الواردة ردة فعلك بعد القراءة، أنهيت النص أخيرا وبدأت أتذوّقه لقطة لقطة حتّى لا أفوّت هفوة أو زلة، تمعنته أخيرا قبل أن أشرع في ترتيبات الإرسال.

أعلم أن لا حيلة لي لأعزّز الرّسالة بباقة ورد أحمر زاه، لم أدرس تفاصيل التّودّد ولا أبجديات جلب الحبيب، وليست لي تجارب أسقي منها رقعة ما أتقنه حتى أأسر قلبك، أعلم كذاك أنه ما عاد يستهويك ما أكتبه أو أخطه في مدحك كلّ حين، أصبح الطّعم مألوفا من كثرة تداوله في كل المحادثات، لم تعد تغريك الكلمات مهما احمرت خجلا، وما عاد ينفع السّمر مهما طال أبدا، وكل ما هنالك أنك مللت الانتظار وما لقيت أحدا، أتفهّم ما تحسّينه لكن لا حيلة ولو وُجدت فما طُلتها يدا.

جاءني الصديق ينادي وما أجبته إلى أن مثُل أمامي، بعد انتباهتي المتأخرة تساءل مازحا:

– أاشتقت لأمك؟ أم أنه الحب أصابك سهمه فقضّ راحتك؟

ضحكت محاولا التملص مما قد اكتشفه، وباشرت الوقوف ألملم أطراف سروالي، لأجيبه قائلا :

– هما معا الأم، والحب، وهي الحب كلّه..

– أممم.. قم لتتوضأ، واستغفر ربك فقد عصيته اللحظة.. هاهاها...

– أستغفر الله العظيم وأعوذ به من كل شيطان رجيم...

– الانسان أكبر شيطان..

– من الجيد أنك فهمت هاهاهاها...

توضأت وصليت متمسكا بأطراف ما نصّه الإمام، فخشع قلبي لرد محتمل على رسالتي فعجّلت السّلام، وفي خطوات متسارعة كان التفكير في موعد ألقاك فيه على قارعة شوارع الأهرام، ذاك الحيّ الرّاقي الذي لن يخدش حياء ثوبك فيه لا متربّص ولا نمّام، ثم نتمشى مسافات لا يصيبنا فيها نصب ولا نعيرها استسلام، لنبلغ شاطئ البحر فننزع ما استطعنا لا لنغري بل لأفترش ما يحول دون ملامسة جسدك للحرام، ولا حبات الرمل التي قد تتعلق بحبك فما ينفعني إن نفضتها إلهام، كانت أقصى ما أوحته فصول الغيرة على الغرام، حتى أني كنت أحدق في الناظر بشراسة فيصرف عنك بالتّمام، كل هذا وأنت بعيدة المنال فكيف وإن لقيتك في شوارع مزدحمة بالخلق كأسراب الحمام.

تأخر ردك فقررت مهاتفتك علّ الرصيد قد خان، رن الهاتف تواليا لكن الصمت تلاه وتسلل الخوف عليك قبل الأحزان، عاودت الكرة مرة وأخرى حتى تأكدت أن أمر الحيلة قد حان، انتظرت لساعات مرت طويلة على الفؤاد المثقل حرمان، ثم هاتفتك من رقم ليس لي لتجيبي فانشق القلب من وقع الخذلان، وتريثت قبل أن أحادثك بعنفوان :

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. أخيرا أجبت.. كيف الحال والأحوال؟

– أهلا.. الحمد لله.. لا يمكنني محادثتك الآن..

– لِم لمْ تجيبي قبلا؟ ومتى سيحين وقت المحادثة إذن؟

– سأهاتفك فيما بعد سأقفل الخط الآن، إلى اللقاء.

أنهت المحادثة دون إجابات، أنهتها لتتركني متلخبط المزاج ولا حيلة باليد إلا التأويلات، بقيَ الهاتف معلقا بالأذن كأنه يأمل عودتها لتُخرص الآهات، وبقيت معلقا آمالي على قش ما نصته الوعود من كلمات، أثور كلما دق العقل نواقيس اللوم لتتعقد

الأزمات، أزمة جفائك وأزمة بُعدك رغم اقتراب المسافات، أستنشق عبيرك على بعد أمتار بعدما حاول شقّ الكيلومترات، تضاربت الأفكار السوداوية في مخيلتي بعدما عجزت عن كبح التساؤلات، أتأبين لقائي بعدما غردت بالشوق له بشتى العبارات، تحلمين لشهور بنسمة من أنفاسي تداعب خصلات شعرك واللحظة خنقت أنفاسي بهكذا تصرفات، تمايلت شمس النهار للمغيب بعدما تأكد غروبك بالعَبرات.

مرّت الليلة كما أراد الصحب فتعددت اللقاءات، حضر الشلة كلّ من مرقده فتعانقت الذكريات، حاولوا الترفيه عنّي قدر المستطاع لكن الحزن دفين رغم تعالي الضحكات، كلما رأيت زوجين تحسرت على كل لحظة بُعد بعد توالي الجولات، أتتبع خطواتهما وبسماتهما لأنعم ببعض منك بتأملات، أخيب فأُنكس ليلملم بعضا من شتاتي رفقة أبدعوا من الهزل لوحات، حاولت التّناسيَ ولو أنّي ما فلحت فلابأس إن حاولت مرات، تمشينا لساعات حتى لفضت المدينة خلقها وانفضت الحلقات، تكدّسنا على قارعة الشّارع لنقف في طابور ننتظر من "دّا لحس" أن يملأ بطوننا من جوده أكلات، بملعقة واحدة لا يحتاج تغييرها يتناقل ليملأ رغيفك بالمكونات، ثم سكين متعدد المهام يمزج الخلطات، كل ما تعلمه حقّا هو ما يسألك عنه لتتذوقه دونما النكهات، كنت أتلذذ بالطعم وأهث خلف نكهة الفلفل الحار لأبلّ بعدها الريق برشفات، أتطلع للخلق من حولي باحثا لك عن مقعد بينهم لكن هيهات، لا أتطلع إلى جلوسك هاهنا بين أراذل القوم فالصّراع قسّم الطّبقات، ولأني أعلم أن لا طاقة لك بهكذا وجبات، عدلت عن الفكرة من أساسها وركزت على المصنفات.

عدنا للغرفة ليلا بعدما هدتنا الخطوات، تأخرنا عن مواعيد الصلاة والنوم، فمواقيت هؤلاء القوم تزيد عن المعتاد بالساعات، غيرت ملابسي وعيني على الهاتف لم تبرحه منذ آخر رسالة، عاودت مراسلتك دون ملل لأني أعشقك وأجزم دون عقل أن هناك أمل، انتظرت لدقائق فما اهتز فؤادك عطفا على لهفة المكلوم، عزمت فأحكمت ترتيب أرقامك

على شاشة هاتفي، رنّ ورنّ ولا مجيب إلى أن أُغلق الخطّ، عاودت الكرة فتكسرت الجرة وتلخبطت مواعيد وترتيبات لقائك، حاولت تعقب آثارك على مواقع التواصل الاجتماعي، لا دليل لتفقدك رسائلي المتتالية، تذمرت فاسترسلت في عتابك بوابل من التساؤلات.

استسلمت لنفورك مني، وأذعنت لليلة حمراء أعدها الصّحب في الغرفة المجاورة، تقاسمنا النكهات لتتصاعد الأبخرة من الأفواه، وتقارعت الكؤوس التي لثمتها لتنسيني همك، فما كان من الثمالة التي بدأت بالضحكات المتعالية إلا أن تقلب الجو حزنا وسخطا بعدما تذكّر كل منا أوجاعه، بدأ البعض يواسي الآخر بلا وعي، ثم انفض المجمع بعدما أنهكه السهر للساعات الأولى من الصباح.

دبّت الحياة في الغرفة في وقت متأخر من النهار، فبدأت الأجساد تترنح في طريقها لدورة المياه، وأخرى تنتظر دورها لتبل عيونها النائمة برشة ماء، ثم رائحة الشاي تنبعث من المطبخ المجاور، ليطلّ علينا صديق بصينية الشاي وخبز تفوح رائحته لتبعث فينا الهمة والنشاط، قبل أن أقوم كالمعتاد تفقدت هاتفي أملاً في رأفتك بي لكن خيبة أخرى، ومع ذلك راسلتك بتودّدي المعهود، ثم أسرعت لأباشر ما تبقى من اليوم الذي قررت الغياب عن تفاصيله.

مر الوقت متثاقلا أنتظر فيه إطلالتك، بينما انشغل كل من الصحب بأشيائه في انتظار نضج وجبة الغداء، غابت الشمس لنلتم على وجبت الغداء، وظللت وفية لغيابك، بعد أن خلصت من وجبتي، قررت الخلاص من انتظاري لموعد لقائك فهاتفتك مصرا على بلوغ جواب، غيرت الأرقام حتى لا أختبر ردك، فأجبت.. غيرت لكنتي وعددت تُهمي حتى يستيقظ وحش أفكارك المبيتة، لا جدوى مما خططت له فلا موعد تقرر رغم أني قلت بلهجة حادة أنك تغيرت.

غادرت المدينة التي خلتها لوهلة مسرحا للقاء بألوان، كنت قريبة لدرجة أن ريحك ألهمني البحث بين أزقة جلتها رفقة الخلان، أتفحص الوجوه بحثا عن صدفة بلا عنوان، أسابق الزمن لمعانقة بقعة من محياك الفتان، لكن الحلم تبخر كسابقيه لا مجال للبقاء فالفؤاد تعود الحرمان، صدمة أخرى وألفظ أنفاسي والظفر بك يصبح في خبر كان.

حزمت متاعي بعدما باءت كل محاولاتي بالفشل، ركبت الحافلة والشك يغالب اليقين، هل أتشبث ولا شيء أعلّق عليه آمالي؟ أم أسابق الحافلة وأبدأ رحلة تغيير عنواني؟ تهاطلت الأسئلة على رأس أنهكه حبك فانحنى، فما مر بي أحدهم إلا ظنه احتراما فاستغرب وأثنى، لكن سرعان ما أثور في وجهه كلما استكثر فخاف وانثنى.

## الفصل الواحد والعشرون

ودّع ملوحا بابتسامتك المعهودة، تفنّن في رسمها بشتّى المستحضرات والألوان، حتى تُبقي الودّ الذي عشّش وما له من زوال...

وصلت وجهتي فحاولت أن أعلمك أني بعيد الآن، رسالة لم أتبعها أخرى، لأنتظر بعدها يوما وليله، كنت أحاول أن أكبح جماح لهفتي بك، كانت تسبقها رغبة الكبرياء في رد الاعتبار لمقامه، استأسد وشاح ببصره بعيدا عن جفائك، عانيت محاولا الصعود للأعلى فمعاملتك غمرت أنفاسي فاختنقت، ولولا صبر نلته منذ صباي لما غردت كلماتي تغزلا بك رغم صدك.

في اليوم الموالي قررت متابعة غيابي، لكن مع ذلك لم يفارق جوارحي طيفك المستبسل وسط ساحة المعركة، محايد لم يعد ملكا لك ولم يملّ من إخضاعي لهواك، لطالما حاولت الفرار للحياة منه لأجدني على أعتابه، أقف أتأمل شساعة المساحة التي اكتسحها بداخلي، أعدد الفروع التي غرسها في أرضي القاحلة لتزهر شوكا استحال معه المتنفَّس، أستلقي على وخزها غير مبال مادام الفاعل أنت، أبكي ما صنعته من بسامات لمحياك السمح لتمنع عنك الأذى الذي ألحقتِ، وأستمتع في غفلة منك بعبق العرق المتصبّب من على جبينك كلما خلف الحقائق تواريت، لأدافع عنك رغم اتهامك لي في محاولة للإبقاء على جمالية صور البدايات التي أهديت، أبقيها بغلافها حتى لا تلطخ زجاجها بصمات مجرم إليه أشرت، لا يهم ما ستؤول إليه الأوضاع بقدر تشبثي ببعض من روائعك وإن غادرت، يوما ما سأحظى ببيت أخصص فيه غرفة مغلقة أرتب على رفوفها تفاصيلك، أدخلها كلما ضاقت بي الأرض بما رحبت، أستنشق تفاصيلك المملّة في غفلة من العالم الّذي هجرت، أعلم أنها خيانة لمن بعدك مهما تعددت مسمياتهن، لكنك الخزانة الوحيدة التي راقني تصميمها، فتمنيت امتلاكها لكن لا بالتمني تدركين، ولا بحزم الكلمات تُستعبدين، وإن مِلت لتناغمها يوما لكن سرعان ما تعوّدتها فمللت الطّعم، ورفعت سقف الطّموحات فما بلغته ولا حتى لي القدرة على استشرافه، لكنّي سأفتخر يوما ما بما حققته من إنجازات وإياك، لن تكوني حاضرة لكن طيفك سيعوض غيابك ليصفق للقدر الذي أردت، ثم

ستجدين ريحه على مرمى منك كأنه بمحاذاتك يخبرك عما فاتك، يسرد الخطوات بالترتيب دونما هفوة كما لو أنك أنت.

قررت مساء خلال التسوق الوصول إليك، أخرجت هاتفي وقررت مهاتفتك، وأنا متشبث بالهاتف زيادة عن اللزوم أنتظر ردك، كأن سارقا يتعقبني أو هي الرغبة في عودت دفئ الحب لأحضانك، رنّ ورنّ وقلبي ما ملّ انتظارك، لا أنظر إلا لموطئ قدمي أعاين مساري الذي ما عاد يغريك، أترقب جوابا شافيا يزيح الغمامة التي خيّمت على عالمنا منذ أيام، لعله يوم الحسم الذي لطالما أُلهمتُ كتابة حروفه من ذهب، حين يزفك القدر إلى لقائي فتأبين بعده الفراق، لا أدري ما كلّ هذه الثقة التي جعلت مني شخصا متفائلا لهذا الحد، علّقت آمالي على جدائع طيفك الذي ما فارق ناظريَّ، ووعدته أنّ النظرة باقية مهما استحال العناق.

أخير أجبت بعدما عاودت الاتصال بك لمرات، جاءني صوتك مغايرا لما عهدته فحاولت تلطيف الأجواء بادرتك مرحبا :

– السلام عليكم.. مرحبا حبيبتي.. كيف حالك؟

– أهلا.. الحمد لله.. أنت كيف حالك؟

– الآن وبعد سماع صوتك أنا بخير.. ألم تشتاقي إليّ؟

أطبقت الأفواه لدقائق مرت كالساعات، توقفت عن المشي وجلست في غير مكانه، خارت قواي كأني مقبل على سماع خبر موت أو ضياع عزيز، أخذت نفسا عميقا ثم توقعت الأسوأ لكي لا أصدم.

ثم نطقت بعدها بصوت حازم لا مكان فيه للهزل، ولعلها المرة الأولى التي صادفت هذه النبرة في حرفك، وبتركيز كبير بدأت الخطبة التي تعودت :

– هارون أنا اليوم قررت أن أنهي هذه العلاقة حفظا لماء وجهها، حفظا لكل الأشياء الجميلة التي جمعتنا، حفظا للحب السامي الذي لطالما وهبنا، قررت والمرة قرار لا رجعة فيه، أرجو أن تتفهّم الأمر وتستوعبه لأنه في صالحنا معا، لا أريد أن تمزّق أحشاء الكلمات التي خططنا معا على صفحات هذا الكتاب الذي اشتركنا، أتمنى لك من كل قلبي الذي ما انفكّ عن النبض باسمك حياة أهنأ في قادم أيامك...

بعدما انتهيت قررت طرح السؤال الذي ما سألته حين غادرت في المرة الأولى، لا أعلم لم تجرأت وطرحته في هكذا موقف؟ وإن أردت معرفة السبب، لكن كان بالأحرى محاولة للتوسّل، سألتك بنبرة المنكسر:

– ولكن لماذا؟

سألت ويا ليتني ما فعلت، لأن ردك البارد ما زاد طيني إلا بلة، فغرقت في وحل الأماني التي رسمناها معا، أو الأجدر أنّي تفننت في زخرفتها وما كان منك إلا الثناء دونما مشاعر، قلتِ والقول هشّم ما تركت :

– الحقيقة أني ما عدت أحبك.

تهاوى رأسي لولا أني سندته إلى كفيَ الذي لطالما تفنّن في التغزل بك بكلمات، وتهاوى قلبي لولا أني أحكمت الإبقاء على موضعه بآخر النسمات، حتى وأنت تطعنين أحاول الاستمتاع بآخر اللحظات، بقيت صامتا حين قررت سرد آخر العبارات، ترتيبات الوداع وإنهاء المحادثة أبقتني شاخصا ببصري على شاشة هاتفي أتأمل النكبات، كأني أتأكد فعلا أنك أنهيت أنفاس علاقة امتدت لسنوات، كأني أحلم أو وددت أنه حلم لا حقيقة هدّمتِ خلالها كل الأماني وأجهزت على الحياة، توسلت الدقائق التي أبقتني جالسا مكالمة أخرى تفند كل التّصريحات، بعدما ارتاب الخلق من قعدتي بدأوا يسألون والسائل غريب فكيف بالحبيب.

قمت من مقامي موقنا أنّك رحلت، ثم رنّ هاتفي لأهتز فرحا لكن حتى هذه المرة ما كان السائل أنت، حتى الأهل استشعروا تأخري فهاتفوا للسؤال عني، طمأنتهم ثم قصدت الدار بعدما التفتت في جميع الاتجاهات مستشعرا عودتك لكن ما عدت..

كانت ليلة باردة ما عرف النوم طريقا لوسادتي، متقلبا يمنة ويسرة أدقق في الأحداث من الألف للياء، كيف شرّفت بقدومك دارا ما عرف الحب سبيلا لأهلها، فتعوّدتك وأزهرت جنباتها وعبقت كلماتها من فيض شغفها بتفاصيلك، إلى أن غادرتها فأوجعت الجذر والجذع، وذبلت الأوراق والزهر، وتساقط الغصن بما حوى، برعم وعشّ وثمر بلا نواة، وتيتّمت فراخ بعد عجزها عن الحركة، لا سبيل للعودة فقد تهتُ عن الوسيل الذي أقلّك من موطني، غادرتِ الدّمار الذي خلّفته فاستعصى على كل العابرين إصلاحه، حتى وإن حضروا واصطفوا في أبهى حللهم كانت المقارنات تسقطهم تباعا، أدركت حينها أنّ من استوطن القلب في خامه لن تزيحه إغراءات المستعمر مهما عظمت.

مرت الأيام الأولى من إعلان رحيلك سنوات عجاف، ليلها كنهارها عيون استحالت جاحظة من كثرت تقليب صفحات كتابك، أبسم حينا لأُنكس آخر، أتصفح الكلمات لأرتشف منها ما يبل ريقي، لتبتل وسادتي على ضياع الجمل بما حمل، حلو ومر تهادى من على الجبل.

حب كنت أتحين الفرصة المناسبة لأتذوقه فأذاقني مرارة الضياع، ضاعت أحلام رسمتها على صفحات بيض بقلمي الشجاع، براه الواقع المرّ الذي لطالما أكد أنه حلم فتحدّاه ورفض الانصياع، وخطّ من وحيه بالأبيض والأسود مسالك مزهرة طويلة الباع، لا نهاية لمعالمها ولا حد لما تزخر به من أنواع، وطيور مغردة تحوم متراقصة في بهجة مشكلة شراع، تراكمت إلى أن حجبت نور الشمس الوضاحة وما بلغنا منها سوى شعاع، ذاك بصيص الأمل الذي كنت مؤمنا أن رقعته سيطالها اتساع، وسيفوح عطرك ليتهادى

من ريحه العشاق في كل البقاع، وتكتب سطور من وحي ما سنحياه مستقبلا سيطال منها الأجيال انتفاع، فنخلّد في الكتب والأذهان وتُروى تفاصيلنا لتصغى لها القلوب استماع، تبخر الحلم على هامش المخططات الخفية التي ما استطعت لها إقناع، وودعت قبل اللقاء فحجبت بكلتا يديك ذاك الشعاع.

بعد أن نال التعب من انتظار عودتك، تداعى كل ركن من جسدي إهمال، حاولت بشتى الطرق تناسي تفاصيلك لكن هيهات هيهات، تجدني أبتعد لأعود للمحادثات القديمة، أعود لأول الكلمات أرتبها في مبيان، تعالت دقات القلب لتبلغ عنان الأراتيب، ثم تهاوت لتتوسد الأفاصيل ولا عنوان، حتى الرموز تشابكت معالمها وغاب البيان، سنظل رغم رحيلك نتعقبك أنا وطيفك لا نقلق راحتك لكن نتوسلك الحنان.

## الفصل الثاني والعشرون

المناسبات تعتبر فرصا لا تعوّض، لنفض الغبار عن غلاف ألبوم دُسّت به صور العلاقات المقطوعة.. نظفه وقلبك أولى بحملة نظافة...

مرت أيامي من دونك مطبات، أحاول في كل مرة استيعاب أني ملزم بالعيش لا الحياة، أحاول الأخذ بنصائح من هبّ ودبّ علّها تنفع قبل الممات، أحاول الخوض في ملذّاتها متناسيا أنك اللّذة والباقي فتات، أساير الحريم تودّدا لكن كلّما تعمّق الودّ بدأت وساوس المقارنات، ألهو على قارعة طريقك لا يملأ فراغ رحيلك جمال غجريات ولا دلال أجنبيات، أبكي رحيلك كل ليلة على وسادة تحفظ سري وترتشف الدمعات، لا أريد إلا عودك والأحمد بعده لا ضير إن تقاذفته العبارات، حُرمت عنادك واشتقت دلعك فاستحضرت ما قيل على مرّ المحادثات، وتناقلتُ خبر رحيلك على المنابر علّها تبلغ مسمعك فيحن القلب وتتقلص للمحيا عضلات، عبوسك لا يلائم جمهور قسماتك الناشئ الذي ذبل ومحت سيول العَبرات المستحضرات، كلما قررت أن أنساك أجدك مندسّة بين حروف النسيان لتبعثري معان الكلمات، لأرفق ملف الشوق بصور عمّرت بين ثنايا هاتفي لسنوات، أقلبها مع التدقيق في مكامن الخلل الذي أضاعك فرصة لا تعوضك الأخريات، أتلذّذ بسمّك الطاغي في الشرايين حتى غالب لونك الكريات، لأتنهّد بزفرة طاردا شرّك مستنشقا محاسنك وما طاب منك مقبلات...

كانت كلماتك الأخيرة عن الفراق حاسمة لا بعدها جلسات، تأكدت أنك عازمة فأسلمت أنني ودعتك بلا رجعة، لكن القلب جاورك في غيابك كما الحضور، فقرر المحاولة مكرا علّ المكر يداعب مقلتيك ليلين فؤادك بالهمسات، كنت أستغل المناسبات حتى أراسلك لأسأل بعد ردك البارد عن أهل لم أزرهم، أحاول البحث في كل حين عن منفد أبقيك فيه على الطّرف الآخر من المحادثة، كان الجو باردا مهما حاولت، لأفشل في المرّة مسلّما لأخرى زمام عطفك، أنتظر حلول الأعياد الوطنية وبعدها الدولية ثم الأيام الثقافية، كل المناسبات تعنيك ولا تعنيني مهما عظمت في عيون المحتفلين بها، أترقبها كترقب العابد الزاهد لهلال رمضان، لا لأصومه بل لأجاورك في موائد الإفطار، أتذلل

للظفر بكلماتك الباردة في كل حين، أواري الكرامة خلف باب الهيام الذي أعمى البصيرة وكشف السرائر، أسأل عن حالك الذي أردى حالي طريح فراش الهوان، أضعف كلما حاولت الإقلاع لأجد شفاهي غارقة في لعاب سال بذكراك، أفترش ظروف نشأتك لأجد ذرائع لصنيعك، أجد ملايين الأعذار لجرمك حتى لا أُزجّ في سجن اللّوم والعتاب، أقف كل حين على إنجازاتك أعدّها تفاديا لتربّص النّكبات.

تعاظم صوت المطارق حتى قضّ صلابة السّندان، وعيون الساهرين معلقة بالسّماء ترقب طيفك المنحوت القسمات، وحناجر المتبتّلين تناشدك صفحا قبل الفوات، هكذا أبدو كل ليلة على مخدّة الأحزان أترقب وصولك، تختلط المشاعر لتتقاطر التساؤلات في موقف تحير فيه العقول أتعاتب أم تسخط، أتصفح أو تعدّ العدّة لانتقام يليق بمقام الصّدمة، لا جواب لكل تساؤلاتي ما دمت قد عدلت عن زكاة الكلمات، لا شيء يعادل الفراق الذي أبت الجوارح له التّصديق.

توالت أيام الهجران في العالم الافتراضي، فافترضت أني مصادفك عند منتهى كل زقاق أسلكه، في كل مركبة أركبها أتصفح المقاعد علّي أقرأ حروفك، عند معالم كل مدينة أزورها أتمسح جدرانها مستشعرا ملمسك الناعم، مراقبا أعقاب الناس أتطلع لقدّك الممشوق المتمايل، أتحسس نغمات الأصوات علّي أطرب بلحنك الرّفيع المقامات، حتى الوجوه أصورها على حين غفلة لأرتّب وأقارن المتشابهات.

يومها وفي إحدى الدوريّات التفقدية رابني أن معالم "البروفايل" قد حُجبت، هي خطوة مسلّم أمر حدوثها لكنها مزّقت أشلاء القلب، وتداعى بعدها الجسد للحمى بعدما غالبه السّهر، وأرّقتني كثرة الأسئلة المعاتبة لفعلك فقضّت مضجعي، وما عدت أنام إلّا مرهقا من شدّة التّفكير في تفاصيلك، فقررت أن أستنشق القليل من أنفاسك العليلة خلسة دون إعلام، فنقلت أرقام هاتفك التي أحفظها عن ظهر قلب لشاشة

هاتفي، ثم حجبت رقم هاتفي حتى لا تبصره عيناك، وانتظرت ردك في ارتباك منقطع النظير، رنّ الهاتف أولى وأخرى ثم إشعار بالاستجابة لإلحاحي، جاء صوتك الناعم كما العادة ليلهب قلبا غالبه الشوق فانحنى، وخارت قواي فمال جسدي عفوا للجلوس على قارعة الطريق، فخشعت جوارحي لحرفك لا تسمع بعده من ضجيجها إلا همسا، ولا أكترث لما يقع حولي في زحمتها سوى لمقامك، فانطلقت تردّدين في الضّفة الأخرى من هاتفي :

– السلام عليكم... ألو... ألو... من المتصل؟ هل تسمعني؟

بقيت ملتزما الصمت لدقائق قبل أن تقطعي الخطّ يأسا من إجابة، أحسست بعدها بنشوة أبعدتني عن الواقع حد الثمالة، وهاتفي بقي معلقا بأذني يريد الإبقاء على صدا كلماتك إلى النهاية، ألوك الحرف مستمتعا بمذاقه الحلو كالعلكة لكن رميه استحالة، سأبلعه مهما كانت الأضرار فأنت الحب والحرب للشّامتين ولا خيانة، كان أمر ارتشاف قطرات منك مستفزّا لمقامك وسلوكا صبيانيا لكنه آخر ما سنّته الوصاية، كنت أعلم أنك تمقتين الفعل وحتى صاحبه الذي ما كنت تظنّين أنه ماضيك الذي غدا حثالة، كنت أهاتفك بعد الثلاثة أيام بنفس الطريقة وعلى نفس السّاعة، إلى أن جاءني الرد يوما ما من المجيب الصوتي يخبرني أنك حظرت المكالمات المحجوبة الأرقام فثارت القسمات.

عدت لاستغلال المناسبات علها تغريك للحديث، أراسك مهنئا أو مباركا أو سائلا عن حال الأهل وما يهمني سوى حالك، أتحيّن الفرص للظفر ببعض من وقتك الثمين، ووقتي كله مخصص لك، ما بين مراقبة "بروفايلك" والنبش في ملفات المتربصين بك، وعلى خطى كلماتك المنحوتة في ذاكرتي أرتل العبارات المكتوبة في كل المحادثات، أراجع دروسا لقنتها في الحب والحنان، أحلل كل ما قيل عن التضحيات والوفاء، وأتبسم أمام كل لحظات الأنس والدلع الممارس في كنف البعد، وأبكي كل لحظة مرت باردة ولم أفلح

في إنعاشها دفء، وأتحسر على متمنياتك المتراكمة في صندوق البريد الخاص بي، والتي ما استطعت تحقيقها، لأندب حظي العاثر الذي جعل من المشقة عنوانا لحياة اختارها قلبي في غفلة مني، وسط دربكة المشاعر ما أجد إلا صورك المرصوصة بعناية في هاتفي لأتلذذ بقسماتك المتجمّلة بابتسامة بريئة، أدقق في التفاصيل كأني في موعد لكم تمنيت حدوثه، لأحظى بمداعبة ما داعبته أناملي من على شاشة هاتفي، أتقاسمك أطراف الحديث وبلغة العيون أتودد لاستمالتك، ثم أنهض مضطرا بعد أن يقض الحلم مناداة غريب لاسمي الذي كدت أنساه، كيف لا واسمك ملك الكيان برمته وما عاد قادرا على استيعاب غيره.

## الفصل الثالث والعشرون

القلب الظمآن وسط الصحراء، يخيب في كل حين وهو يتحسس السّراب الظاهر أمامه، فما إن يصادف مياه راكدة يغمر بها أنفاسه ليموت اختناقا...

يومها وكالعادة قررت مراسلتك لأحظى ببعض منك، لا مناسبة اليوم ولا ذريعة إلا الشوق ألزمني الحراك، ولا شيء يعلو على مقامه الذي أربك حتى مخارج الحروف، كانت الأجواء رتيبة بعد عودتي من صيف مليء بالمغامرات، كانت جولة بمعية الصحب حيث اختلفت الوجهات كما الانتماءات، حظينا ببعض المتعة والجنون فتعالت الضحكات، ووسط هذا كله شغلت البال فاستحالت لياليّ كئيبة بعد يوم تناسيت فيه أنني محرِم بمدينتك، كلما التفتت صادفتني لكنتك الشمالية المتميزة عن غيرها، أتهرب من الخلق وأحاديثهم لألقى معالم عانقتها في صورك التي أرسلتها يوما ما، أقف عندها محاولا مواراة حزني عن الصحب لأستعجلهم بعد دقائق للرحيل، أهرب من ذكراك كلما تبركت من وعائها الذي أفضت، أحداث كانت تزيد من حصرتي عن لقاء كنت فيه على بعد أمتار أو حتى أميال.

تحدثنا وكان حديثك يومها مفعما حيوية كأنك عدت كما عهدتك، تسامرنا مطولا إلى أن بدا الفتور يتسلل لكلماتك فقررت إزاحته، فحدثتك عن صيف كنت أقرب ما أكون لبيتك :

– أتعلمين أنني كنت أتمنى لقائك هذا الصيف ولو لثوان...

كنت أنتظر ردة فعلك من كلماتي، أراقب رسالة استشعار توحي أنك تكتبين، فجاء ردك كقطعة ثلج أسكنت آلام الجفاء التي ذقتها لسنوات :

– وما المانع من ذلك؟

– أحقا كنت سترحبين بلقائي إن سألتك ذلك؟

– طبعا ولم سأمانع وأنت تكلفت عناء السفر حتى مدينتي...

– صراحة كنت هناك وكنت أبحث بين الوجوه عنك علّ الصدفة تفي بما امتنع عنه الميعاد...

– كان يجب أن تخبرني أو تهاتفني حتى أعلم أني مرغوبة باللقاء..

هنا لاحت فرصة أخرى للعودة، استبشرت معها خيرا فسايرت حديثك بروية حتى لا أفسد للود قضية:

– لكن لم أعد أملك رقم هاتفك بعد أن غيرته...

هي عبارة ماكرة، سألتك من خلالها رقمك دون مساس بقيمة ما يرمي إليه تودك، أريده بشدة كما كنت ولازلت أريدك، لكن لا يقوى اللسان على البوح بمكنونات القلب الخاشع لطيفك فكيف بكيانك، راقبت موضع الإجابة أنتظر الشافي علي أبرأ من بعدك.

أجبت دونما زيادة أو نقصان، طبقت المقولة وكتبت أن خير الأرقام ما قل ودل:

– ٠٦٩٧.....

– أخيرا منّ قلبك على مسامعي بصوتك الذي لطالما بث الحياة في خوالجي...

– يمكنك الآن محادثتي إن أردت...

– ألديك متسع من الوقت لسماعي؟

– طبعا على الرحب والسعة...

أسرعت الخطوات إلى سطح المنزل في الركن المعلوم، رغم أن هناك أماكن أقرب لأستقل بلحنك الرقيق المعصوم، كنت أريد أن أداعب قسماتك المنحوتة على أطراف النجوم، خططت لاستنشاق عطرك الدافئ الذي ستحمله النسائم خلسة للمغروم، أخلو بأنغامك العذبة لأراقص ضحكاتك المتمايلة كالمشموم، وأخطو لا أعلم إلى أين

تقودني قدماي وسط ظلمة حالكة فأنت الأمل والمسار لا يهم مادام الخط مرسوم، أستنير بك أو بالأحرى أتشبث بيمناك ولا تدري يسراي إلى أين تروم، وكلماتك المخللة بشهد شفتيك تتغلغل في عمق فوهة بركان محروم، فيثور منفجرا ليهبك من حمم الحرف شعرا منظوم، راقك أحيانا وأخرى ما أظنه إلا إطراء لعكس الهجوم، استمتعنا سويا في تلك الليلة القمرية بمحادثة طالت وما كبح جماحها إلا رصيد عجل برحيل المكلوم، فتعاهدنا على التواصل كالخوالي في قول خفي مرقوم.

مع اشراقة شمس يوم جديد، أعلم أن لي عملا أنجزه لكن لابأس إن أُخر، حملت الهاتف وكلي أمل أن يراسلني الأمل شخصيا، بحثت هنا وهناك لأجد نفسي أخط عبارات من القلب إلى القلب في الضفة الأخرى، لا تهم الإجابة بقدر ما يهم البوح مهما كلفك الأمر من إذلال، أطلق العنان لجوارحك لتعبر عما تكنه للآخر من حب واعتناق، ثم اترك الرد لصاحبه لا ضير إن أضرّك ساعة، فقد تغنيك الساعة عن ليال انتظار ترقب فيها اللحظة المناسبة، فيشيخ القول وتتبعثر أسمى العبارات التي رتبتها بتفان، ثم تعقبها عبارات اللوم والحسرة فتطأطئ لتلقّي ضربة موجعة، لا أنت بُحت فتخلصت من صادق القول ولا أنت سَلمت من ذل الاحباط الذي كنت تخشاه.

بعد ساعات كنت أتلصص النظر فيه الى هاتفي بإمعان، أيقنت أن هناك خطبا يستدعي السؤال فذاك من شيم الخلان، هرولت لارتداء معطف يقيني برد الليالي القمرية وكذا برد الحرمان، وأسرعت في الصعود إلى السطح لملاقاة الصوت الفتان، حملت الهاتف لأقرع الأرقام رقما رقما ففي القلب نحتها وفي العقل العنوان، حفظتها عن ظهر قلب والهاتف كفلها بطلّاتها في ظهران، وها هي ذي الطبول تقرع في داخلي مع كل رنة تحملها سماعة هاتفي للوجدان، وذبيب ردك المحتمل يزيد من توتري رعشة تهد صحة الأبدان، فجاء صوتك المغرد ليشدو على أنغامه فؤاد بخطوات لا تعرف معنى للاتزان، ترحيبك ألهمني العودة للزمن الجميل الذي مر بخاطري في ثوان :

- أهلا وسهلا هارون، كيف حالك؟

- الحمد لله فقط اللحظة بخير...

كما عودتك دائما، مغازلا في الجيئة والرواح، أحاول ما أمكن أن أنعم بالابتسامة التي ترد الروح كلما هلت، كلما أشرقت أشرق معها فجر يوم سعيد كله حيوية وإقبال على الحياة.

أجبت والابتسامة الوردية تعلو خدك، بمكر الخوالي تجارين عبارات الغزل كما الماضي :

- ولم اللحظة فقط صرت بخير...

- لأني أتشرب من منبع السعادة التي حرم منها القلب لسنوات...

عبارة ألزمتك الصمت لثوان، أعلم أن وقعها لامس القلب في أعماقه فكيف بالكيان، أعلم أني تعودت للحرف الترحال مطلقا العنان، لا لجام يكبح للحب بوحا ولا العقل قادرا على مجاراته بتفان، أحببت النظرة التي ترمقين بها شفتيّ وهي تغازل بالألوان، وعيونك تتحيّن الفرص لتطالع القسمات في غفلة من دورية الأمان، ولا أمان في غيابك فقط وجع يعلو الجبين لضياع الصولجان.. ترددت في الإجابة قبل أن تواصلي المحادثة متهربة من مدلول المعان:

- كيف حالك؟ وكيف كانت أيامك الماضية؟ وما جديدك بالتفصيل؟

- الحال وخبرناك عنه، لكن التفاصيل يلزمها وقت كاف حتى لا أعطل مواعيدك..

- أنا مستعدة للاستماع ولا مواعيد لي غيرك اللحظة..

أحسست حينها أن الأمل بدا بصيصه ينير في الأفق، ولا حجة للمتخاذل اليوم سوى

العزم علّ الأوان قد آن، فتزودت للرحلة بحرف غير ذي قبل لأصحح المسار وأتفادى مطبات الخوالي، وقررت الإبقاء عليك بشتى الطرق حتى وإن تطلب الأمر عودت الجواري، رسمت المسار وقررت الإعمار ولا ضير إن ألمت بخاطري أغوار فلن تغدو سوى أسرار، وانطلقت أحكيك الماضي الذي خلفه الفراق خطوة خطوة، وعانيت كلما تذكرت حيثيات التخلي وآخر جملة، لا أعلم لم أثر ذكراك لازال رقعة في ثوبي الأبيض الناصع لم تفلح في طرده جل المستحضرات، حتى النسوة تآمرن حين لمسن تعلقي بأهداب كلماتك أواري بها العبارات، وكل ليلة أقف على ناصية حلمك الصعب لأواسي من طيبه النكبات، بدأت تسألين عمن حللن مكانك في فترة غيابك بفضول الغيرة، كلهن حاولن مجاراتك في التفاصيل لكن دون جدوى، في كل محاولة كنت أقارن بين القسمات والنظرات، أتصفح عوالمهن بدقة المكلف بإعداد التقارير، أقف عند نبرات الصوت أرتشف لحنه وأركز في كل نوتة، أتذوق النغمات أراقصها بكل تؤدة متحسسا الخطوات، لا تقدم في أي علاقة إلا بحسابات دقيقة أربكت الحائرين، وبين الفينة والأخرى أختبر لغتك برسالة مشفرة، أنتقي التلميحات بصيغة الواجب حتى لا يعتريك شك، لكن سرعان ما يغلق الباب الموارب لتتوالى الخسارات.

خبّرتك عن المحاولات المعدودة على رؤوس الأصابع، محاولات فاشلة لا تساوي الفشل الذريع الذي عانيته لقاء هجرك، صدقتك القول حين قلت أنهن كن القارب الذي تشبثت به ساعة غرقي في مياهك الضحلة، لا القارب تحرك ولا مياهك أغرقتني، ولا الطعم الذي تعودت رميه التقمته، ولا شباكي اشتهت غيرك لتحضنه، كنت أقف في جرفك العاتي لا تغريني السهول الخصبة، ولا تفتنني الروابي المزهوة.

تعودت ركوب الصعاب منذ نعومة أظافري في الحب، وأنت الحب الذي قلّمها فما طالت أبدا بعدك، تعودت حنان شفتيك المغري فخيطت كل الشفاه قسوة منك، تعودت حركة مقلتيك كلما غازلت فما أفلحت نظراتهن بعدما اعتزلت، تعودت دلال كلماتك

المعاتبة ساعة الغضب فما تدللت إحداهن إلا بداخلي ثرتي، تعودت دلع أنفاسك كلما طلبتِ فما تحقق بعدك طلب وإن لوحتي، تعودت وتعودت والكل تعودك وما نادت الجوارح إلا بسمك في كل ليلة منذ رحلت..

صدقتك أقوالي، وفرشت على ناظريك صفحات أبت أن تكتب لإحداهم ولو سطرا مما أبدعت، خبرتك أنك العنوان الذي لا مناقشة بعده للتفاصيل، لا تعديل لوجودك بين ثنايا صدر ازدحمت أضلعه كلما اقترحوا عليّ تجاوزك، حتى الأسرار التي رسمناها على اللوح لازالت محفوظة وعلى رحيلك ترثي. مبالات رهيبة تعتري تصرفاتي مهما تعالت المقامات، اقتراب فانصراف وحكم لا يغريني سماعه وإن أفصحت عنه القسمات، تعاليم محيّاك صامدة في وجه كل التعاليق وابتسامتك تذبل معها الأزمات، وإن غبت عن تفاصيلي بالسؤال فطيفك لازم يومياتي في الترحال.

## الفصل الرابع والعشرون

الأمل هو إكسير الحياة الذي يبقينا متمسكين بقشّ النجاة..

قررت يومها أن أغازلك بلغة القراءة التي تغريك، لا أعلم أتغير الأمر اللحظة أم أنك على العهد باقية، كنت أنوي يومها السفر في عطلة نهاية الأسبوع لحضور المعرض الدولي للكتاب، كنت مبرمجا الرحلة قبل عودتك، لكنها مناسبة مواتية لدعوتك لمكان تجمعنا فيه صلة قرابة، تتناقلنا صفحات الكتب لنغرق في دهاليز الحرف المنقوش، لنتشارك بين الفينة والأخرى لحظات الأنس في كل سطر يجمعنا، ونعيش مشاعر الشخصيات التي بالصدفة بها التقينا، فنحزن لحزنها حتى يبلغ مداه، فتدمع أعيننا كلما استسلمنا، ونضحك ملء أفواهنا لضحكاتهم حتى ترفرف أفئدتنا إذا ارتوينا.

ليلتها هاتفتك محاولا الافصاح عن رغبة في اللقاء، كانت خفية والمهم أنّني لمحت قدر المستطاع، رن الهاتف والارتباك باد على محياي كأنه امتحان، كأنه لقاء في الواقع أستحضر مع كل نغمة الكلمات التي حاولت حفظها للإلقاء، أنفاس تتسارع ودقات قلب تسمع للعيان، وجبين يتعرق لا أدري أشوقا أم أن الخوف ألهمني النسيان، نسيت التصميم الذي أعددته للموضوع فتخبطت في محاسن صوتك الرنان، ومع صوت الاجابة بادرتك مرحبا بتفان:

- أهلا وسهلا وألف مرحبا...

- أهلا بك وباتصالك.. كيف حالك اليوم؟

- الآن بخير بعد سماع صوتك.. وأنت كيف حالك؟

- بخير والحمد لله...

انطلقت كالعادة تحكين عن أحداث يومك بالتفصيل الممل، كم أعشق انطلاقاتك في السرد، من لحظة استيقاظك إلى حين محادثتي رواية ينقصها كاتب، لم أكن أريد حينها

كتابتها بقدر ما كنت أتمنى عيشها، أتلذذ بالإنصات سارحا بفكري في عوالم المحيط الذي يحتضنك بعيدا عني، أتقاسمك يومك وفي كل مرة أجدني أرافقك لأحيى بعضا من تفاصيله، أعاند ساعة لتشتعل شرارة الشنآن، وأساند ساعات لأحظى ببعض الدلع المقصود.

أغوص أحيانا في تهيأت رسمتها أحلامي بين أروقة مملكتك، أجول الأزقة والأحياء ممسكا يدك بقوة رسمت بها معالم التشبث اللامشروط، أوجعك لكن وجع الحرمان منك أشد وأبقى إلى يوم اللقاء المنوط، أتحين الفرص لأصادف ذاك الصرح من الكلمات بزقاق من الأزقة التي حفظت معالمها، حين أجالسك في موعد مدروس الخطوات، على مشارف جبالها المرصعة بالأبنية الناصعة البياض، حينما يكون للخضرة إطلالة بهية تحمل في طياتها أسمى العبارات، ونادل يأتيك مبتسما يحاول تقليد اللكنة عينها التي أتقنت، ما يفلح لا ولا يضاهي نغمك في كل حرف ممزوج بأرق النوتات، يسألني عما أستسيغه ودون تردد التفت إليك أسألك ما تشربين؟ فحضوره الذي لا أستسيغه اللحظة، لا أريد حتى لذبيب نملة أن يثني نظراتي عن تعلقها بقسماتك، أدقق النظر في أحرف وجهك المشرق ابتسامة لا أريد لها مغيب، فأصعق بصوتك في الضفة الأخرى من الهاتف يسأل :

– أمشغول أنت؟ أأتركك إلى أن تفرغ من اهتماماتك؟

أجيب بارتباك خشية انبعاث ريح سخطك، فالمزاجيون يترنحون عن طريق الفرح ليطؤوا سريعا ودون مقدمات مسالك القلق، لذا حاولت لملمت الموضوع قبل أن أفقدك في إحدى المسالك :

– أنا هنا حبيبتي.. فقط سرح بي الفكر في عوالمك، فرسمت لي موعدا وإياك..

أجبت بشغف المتلهف للقاء، بكلمات محنطة من الزمن الجميل دلعا كما تعودت، كلمات حب تعاتبني كلما تذكرتي :

– ألم يحن بعد هذا الموعد؟ أم أنك لازلت على عهدك لم تحدده بعد؟

اللحظة دق ناقوس الموعد المدبر، موعد قررت اقتراحه علّه يفي بالغرض الذي دبرنا له على مر سنين، ساعة كنت المنادي الملحّ باللقاء، اليوم جاءت فرصة تغيير المواقع، أنا أدبر وما عليك إلا القبول، وغير مهتم للبدايات والتفاصيل بادرتك قائلا:

– ما رأيك أن نسافر معا لمعرض الكتاب هذه السنة؟

– متى يحين موعده؟

– نهاية الأسبوع القادم..

– الأمر صعبا الآن..

علمت أنها هي نفسها أعذار الخوالي ساعة الجفاء، إذا ما تجاوزتها أنا اللحظة خلقتها أنت بانتقاء، حاولت بشتى السبل تبسيط علم اللقاء، بين دعوة واستجابة ترتيبات قد تأخذ مسافة ميل في الصحراء، تناولت بطاقة الدعوة فزخرفتها بكلمات الرجاء، وبالخط العربي الصاخب رسمت حرفك بألوان كلها سخاء، وبين السطور دسست التوسل ليحفظ للكرامة إهداء، فتحت ظرف المهمات الصعبة أرجوه تأمين آخر ومضة من بقايا السناء، ثم زهرة تبقي عبق الماضي مستبسلا في معركة الإغراء، تدللي كيفما شئت فالروح ما كان ينقصها سوى أنت والبقية غوغاء، حتى مقارعة الكؤوس ليلا ما كان إلا الوسيلة الأسرع لاستحضار ذكراك فأبكي بكاء الرمضاء، لأجل ذاك سأجاريك اليوم تودد عليّ أنعم ببعض منك يكفل لي حق البقاء.

جربت جل الحلول لأعذارك فما أفلحت، واستنفذت كل طاقتي لألقاك فما أقنعت، فلم يكن لي إلا أن أتجرع وعدك بلقاء في قادم الأيام فاستسلمت، كيف لا ووجودك أو بعض منك يعتبر الزاد لسنوات، فقط أنا وصورك الموشومة على صدري، وبعض من

صوتك المسجل على شرائط يبقي الابتسامة ولو للحظات، ترياق أحقنه كلما زارني طيفك لأثمل بذكراك مذرفا لحضورها عبرات.

أنهينا محادثة الليلة بأعذارك التي حالت دون اللقاء، فدعوت لي بالسلامة في طريق ما أردت فيها رفقتي، ثم وعد بلقاء على غرار الذي مضى لكن في واقع متاح، إما هاهنا أو هناك المهم أنه بمعية صاحبة السعادة، نمت بتؤدة كالخوالي أفترش صورك الفواحة حبا رغم خيبة اللقاء، لا يهم متى المهم أنك عدت لمعانقة المحادثات الحميمية الغناء، بين كلمات تجملت بمستحضرات لحنك تطل صورك المزهرة بسمات، أقف لدقائق ألامس القسمات بكلتا يدي كأني كفيف أحاول رسم محياك من خلال استشعارات، غريبة أنت لا تستسلمين كما عهدتك منذ سنوات، وإن تراكمت في طريقك الأهوال تستقبلينها بحفاوة لتعم في صدرك البركات، حتى وأنت غريبة عن موطنك المعهود عن حضن تلجئين لدفئه كلما ضاقت العهود.

## الفصل الخامس والعشرون

المفاجآت تعتبر منشطات للعلاقات الغرامية.. ترفع الضغط، وتنشط الدورة الدموية، وتقتل أحيانا المشاعر ليموت الحب في ريعان شبابه...

استيقظت وصياح هاتف تعبت من تحسس مكانه فتدمرت للقائه، أيقظني من حلم لا بعده استيقاظ ما دمت هناك، هناك بين تفاصيل حياتي المشمولة بعطفك، حيث الكل يقف إيذانا بقدومك كأنك هلال رمضان، غدا سنصوم جميعا لنفطر على بعض منك مستحضرين البسملة والدعاء، ندعوا أن يبارك لنا الله فيك وأنت بيننا ، كلما وطئت قدماك موضعا إلا تصدعت التربة أزهارا، وفاحت من طيبك المجالس فأبى الجميع من بعدك روائح أو بخورا، حتى الطيور سكنت لتنال من حظ لحنك أشعارا، لأقف مستشيطا غضبا تراودني أفكار شيطانية لا أعيرها من كثرة حبي اعتبارا، لكن الأهم أني متفرد بقلبك لا يشاركني في الملك كائن مهما كان جبارا.

طار الحلم الذي حاولت جاهدا تذكره لأحكي لك تفاصيله، لكن تذمّري ممن أيقظني عجل بتبخر كل شيء جميل، لولا أني فتحت الهاتف مصالحا النفس أنعم ببعض منك مقلبا في آخر ملف لصورك، أبحث عن المتغيرات أو بالأحرى عن موضع السحر الذي لازال أثره ساري المفعول. تذكرت أني مسافر ففزعت إلى الحمام متوضأ ثم صليت ودعوت للقائنا المرتقب، وظبت ما يلزم من متاع، وارتديت أجود ما أملك متجملا بابتسامة أهديتنيها بعد عودتك، ثم فتات أسرع طريقه إلى فمي وخطوات أسرعت طريقها إلى محطة الحافلات، ويا ليت الوجهة إليك.

ركبت فاستويت على حرف مزخرف أودعته سلامي لك في رسالة، وعلى طول الطريق أتصفح بابك المغلق علّك تطلين، فنمت من شدة التعب وأبقيت الحراسة لرنين، كلما رن هاتف أحدهم استيقظت ظانا أنك حضرت، لأغفو بعد خيبة التصفح لهاتف ما عاد همه إلا أنت.

توقفت الحافلة في مكان مألوف، فلي في الطريق محطات بوجه مكشوف، أتأمل

العاملين بها كأني أعرفهم حتى يردّوا بعد الابتسامة للود معروف، لكنهم يهرولون هنا وهناك كأن حرارة الأرض لا تطاق للوقوف، فاستوقفت مهرولا فأشار لي باستعجال أخذ رقم لتفادي زحمة الصفوف، هناك بين الأيادي الممدودة أرسلت يدي تتخطى في ضجر البعض لظروف، فإذا بورقة مشبعة مرقا تخبرني أن أنتظر رغما عني لأحظى ببعض من لحم الخروف، لا أحبذه لكن أخف ظنا من أطعمة عافتها الرفوف، وُضع الطبق أمامي فدفعته لأضع هاتفي حتى لا تفوتني إطلالتك فلقمة تملأ البطن والقلب تملأه الحروف.

أتأمل هاتفي بالموازاة مع كل لقمة، أسأله في كل لحظة ترى ما شغلك عني، لأراسلك أخرى " أمشغولة أنت؟ أم أن انشغالي بك، شغلك عني؟ لا مجيب ولا مخبر عن حالك إلا بوق الحافلة ينذر بالرحيل، وخبزي يُملأ بأكثر مما كان يحمله لا يريد خسارة في الوقت البديل، وفمي يفرغ مساحة لبعض اللقيمات والحلق يشتكي حمله الثقيل، وجرعات الشاي تبلل ما استعصى مضغه ليسهل بعد الوقوف الرحيل، لكن هيهات فصفوف الركاب تعج عند باب كتب عليه توقف للأداء أولا، أتخشى انطلاق الحافلة ولا تخشى فاتورة للعاب تُسيل، هي فرصة يضيف النادل من خلالها دراهم فوق الحساب فلا معترض ولا رقيب، فالكل يدفع دون السؤال عن الأثمنة ليلحق بحافلة تكاد تسير.

تخلصت من النادل وأطلقت رجلاي للريح تناديان السائق، تشبث كالصاعد في باصات الجامعة، كما الخوالي لفظت أنفاسي قبل أن أنعم بجلسة على مقعد بثوب لونه مغموق، لا تميز فيه بين الدنس واللون، المهم أنه أخفى العيب عفوا دونما جهد، والرائحة تتعوّدها بعد ساعات من إغلاق الأبواب، والبعض يعززها إما برائحته أو بعطر أشدّ وقعا منها، الكل يمارس طقوس حرياته في تجاوز غريب لحقوق من حوله، لا يهم سأغفو لساعات ما دمت غائبة، ما دام الهم الوحيد منزاحا عما يدور في أركان هذه الحافلة، ما دام الهاتف لا يغرد لحنك فلا حاجة لإبقائه مشغّلا، أغلقت اتصالي بالعالم الافتراضي بضغطة زر، وأسدلت ستائر مسرح الواقع بغمضة عين، وتركت للأحلام نافذة مواربة علّ نورك

يطل لأستيقظ على أحلى ما أملك.

استيقظت على وقع صمت خيم على الأجواء في الحافلة، لأفاجأ أن الحافلة خاوية على عروشها، أخرجت هاتفي أتفحص الساعة وأعرف المكان، فتهلل وجهي لرسالتك لأفتحها متناسيا أمر المكان، قررت الإجابة فورا لأنعم ببعض منك ولو لثوان، لكن كما اعتقدت هي طلت غادرت بعدها العالم الافتراضي، فنزلت أحاول استطلاع المكان واستنشاق هواء نقي، وتركت أمر استجابتك لنداء الشوق رهينا بالرنة المنتظرة.

ساعات سفر طوال لم أنعم فيها بالراحة لغيابك دونما تبعات السفر، أخيرا حطت بنا الحافلة على أعتاب باب محطة لا تغري زائرها، كيف لا وهي لا تغري حتى أهلها ولا ترقى لمسمى المدينة الاقتصادية، كأن القائمين صرفوا ببذخ على كل معالمها واقتصدوا في تفاصيل الباب، باب يزوره الملايين كل سنة حتى أن آثارهم لازالت شاهدة على مرورهم، جدران المحطة بداية من الساحة الأمامية وحتى أعمق مكان، لم تسلم من خربشات بكل الأدوات المتاحة والممكنة، قد يجود الفنان القانع بشيء منه ليكمل رسمته، لم تسلم من كتابات خلدت لفن همجي بالألوان، قد يبدو للناظر من بعيد كأنه لوحة تشكيلية من إبداعات المدرسة الوحشية، سمعنا عنها في مقرراتنا وقد امتحنا فيها لنسهر ليالي نرتل أمجادها، لا لشيء إلا لنقطة أوجبتنا العقاب فعاقبنا القائمين على المدينة.

كتبنا عبارات بلا معنا هاهنا وهناك لأشخاص عرفناهم وآخرين لم نعرفهم، ورسمنا صورا لأعضاء وحيوانات غريبة مرت بأذهاننا فخلفت تلك الصورة النمطية للتعبير المتحرر، تحرر ظل حبيس الأماكن الخالية من أي عتاب أو عقاب أو نقد، الكل يخشى بعد كل خطوة تعليقا قد يلزمه الجلوس لمتابعة ندوة، رسمنا وما عدنا نرسم بل تُرسم الخطوات لنقتفيها رغما عنا، نتحجج بالظروف والحياة وغيرها مما لُقّنّا عفوا معاتبته لكل ما يجري وسيجري.

لكن اليوم لم يعد للمدرسة الوحشية وجود بين أحضان تصرفاتنا، لا ندري أنضج اقتفينا أثره أم هي الرهبة من التعليق ألجمتنا، وأرخت للحب بين ظهراني العالم الأزرق لجاما، فأغرمت بك حدّ الهوس بتفاصيلك الدقيقة، أسأل عن كل صغيرة وكبيرة محللا ساعة وناصحا ساعات، رسمت صورتك بحبر أبى أن يمّحي رغم كل المستحضرات، رغم تعدد البدائل والتنويع في الإغراءات، أظن أنه خلود الذكرى أعقب كل حوار حريمي، كالمقطع المفضل من أغنية طفولية جاورتك لسنوات، وإن تغافلتها يوما حضرتك أياما سواء كلمات أو همهمات أو حتى لحنا داعب مخيلتك للحظات، أنت الكلمات واللحن والطيف الذي جاور الحياة في الأفراح والأزمات.

توجهت مخفيا حضوري إلى قريب أوصيته الكتمان، وعلى بابه أقرأني السلام وأشاح بأن الدار أمان، فرتبت المراسي وألقيتها على مقربة مني حتى لا تلمحها الحيتان، وبللت الجسد من مائها المثقل ملوحة غرفتان، ثم مائدة تسارع الأكل في جنباتها ففاض وجبتان، وقبل أن أطلبك أحرجني اتصالك بينهم لأرتبك وأحاول الهروب ولو لثوان، ما أمهلني الصبر فأجبت وكلماتي متقطعة تخبرك أني بمعية الإخوان، ركزوا نظراتهم صوبي وما عاد يلهيهم أكل ولا ما بالشاشة من أغان، فرافقتك إلى الغرفة المجاورة أُحكم إغلاق بابها لأختلي بك والشيطان، لا يهم ما سيطالني من تعاليق بعد عودتي إليهم فشتان، شتان بين اللحظة التي قد يتلاشى شغفها ولحظة الفراغ بين اللقمتين، جلست أتأملك في صمت كسرته بسؤال أظنه هروبا من نظراتي:

– ما بالك أظنني أزعجتك باتصالي اللحظة؟ بل وسببت لك إحراجا؟

– لا بل على العكس اتصالك في مكانه ووقته، والباقي في غير وقته...

– عن أي باق تتحدث؟

– كل من وما يريد مجاراة حضورك، يأجل فأنت اللحظة التي نطلبها ونسعى للظفر

بها في كل وقت وحين...

أرغمتك الكلمات خجلا على تغيير الموضوع فبدأت بالسؤال عن تفاصيل السفرية، سايرتك فالمهم أنني أراك بعد طول غياب ولو على شاشة هاتفي كما الخوالي، أسترجع تفاصيل الماضي المزهر بطلاتك في كل حين، أستنشق عبق كلماتك فلا بعدها طيب ولا يهم حضور الأكسجين، فبمجرد غيابك يضيق التنفس ولو بفتح عبوات الأكسجين.

فاجأتك وسط الكلام العامي عن تفاصيل الحياة، بكلمة عالقة بين شفتي بمجرد أن لمحتك عيناي:

- اشتقتك...

وقفت مكانك بينما كنت تتنقلين في أرجاء بيتك الموحش المعلول، ثم رمقتني بنظرة حبيب نال منه الحرمان فغدا يراقبه بمحيا خجول، نظرة طفل اشتاق لحضن أبيه الذي هدّه المرض فألزمه كرسيا مشلول، نظرة شعب قهره حكم عسكري طاغ بعد الانقلاب على رئيسه المعزول، نظرة أم أتعبها الانتظار لسنوات علّ المحتل يفرج عن ابنها المغلول، دام صمتك واغرورقت مقلتيك وأخيرا تحركت شفتيك لتدق ناقوس الحب من جديد في عبارة صغيرة لكنها كفت :

- حتى أنا اشتقتك...

حلاوة ما بعدها طعم يخفيها، كلمات ألزمتني الحياد عن سنوات كنت السبب فيها، سرحت بمخيلتي في غياهب قولك المترنح بين الدفا والدلال وبين البرودة والاحلال، تناقلتني الذكريات في لقطات خاطفة لكل جرم ارتكبته واستقرت عند كل انجاز أدركته، امحى كل سواد خلفته قدماك وسطع بريق مقلتيك، تلك النظرة التي أنستني من أكون، هي نفسها التي شدت على يدي تقودني لمجهول أذلني، لا يهم إلى أين وكيف، المهم أنك

من اقتادني في عمى الحب الذي لأجله ابيضت عيناي، المهم أني برفقة من سلبني زمام الأمور ليهبني حياة، حياة لا أعلم مدى مصداقيتها أو قيمتها فالمهم أني معك أحياها، فاجرحي وضمدي وسممي واحقني وانحري إن شئت فلا مفر منك إلا إن فررت.

تقاطعت الذكريات سريعا في أذهاننا، وعيوننا ما انزاحت عن بعضها إلا مدققة في قسمات المحيا، ندقق في كل صغيرة وكبيرة نبحث عن متغيرات وما تغيرنا، نشتهي قرب غير الذي جادت به هواتفنا لكن لا طاقة لما رسمنا، نتذوق طعم شفاهنا كلما تحركت لتبلّ ريقا تصحر حين افترقنا، نعاين الأضرار من لسان خرج عنوة ليتراقص في إغراء لكل الحرمان الذي تكبدنا، فأسألك إشارة أن تنعمي برحيقك حتى تزهر صحرائي فتلبّين تدلّلا، ونتبادل القبل خلف الشاشات في صبيانية أكدت أن الحرمان لا دين له، ولمسات من أناملك تغري لكنها تكوي، رغم أن آخر العلاج الكي إلا أنها ما زادتنا إلا علة، أشتهي ليسيل اللعاب لكل حركاتك وسكناتك، أراقبك في حذر خشية أن يفوتني منك شيء، أخشاك وما لي طاقة لأحتوي شغفك بالحياة لكن مع ذلك أهواك، بل أهيم حبا في كل لمحة من ذكراك، وأطرد كل حرف من الواقع جاءني منذرا لفراقك، أشرب الكأس تلو الأخرى محاولا حجب ضوء الحقيقة، لا مكان لأخذ نفس إلا من سيجارة أشعلتها ليمتزج دخانها وطيفك الحائم بي، سأبقيك سأبقيك ولو على جثة قلب لا يعرف في الحب إلاك.

تسامرنا ليلتها حتى ساعات متأخرة من الليل، اعترفنا بما اقترفنا ومحونا ما أردنا حفظا لماء حب بنيناه على سراب، سراب حلم أبدعنا في حياكتها دونما هوادة كأنه لا شغل لنا إلا كلينا، تعاشرنا في حياء غيّب أبجديات الغرائز فما ارتوينا، وعلى غرار كل الليالي أنهينا المحادثة بالقبلات والكلام المعسول، شهية ألزمتني إسدال الستار عن أي كلام بعدك ولا حتى نور، وضعت رأسي على مخدة ليست لي، وسرحت بناظري في ظلمة الغرفة أتطلع لطيفك الذي ما فارقني أبدا، أستمتع بحركات الدلال التي اعتدت إغرائي بها كلما

ظهرتي، أنتقي منها ما سلب قلبي لأتلذذ بإيقاعاته، أتراقص على وقع خطواتك المتزنة كراقصات "الباليه" الذي يوما ما أتقنت، أسايرك لألحظ أن الأرض ما عادت تطيقنا فسلمتنا للسماء، بعيدًا عن كل المشوشات تغازلنا وتعانقنا، وعلى ضوء القمر خططنا مسارا لا فيه اعوجاج ولا حاجز، حلم لا تضاهيه الأحلام الوردية التي استمتعنا بقراءتها في روايات الحب التي أبهرتنا، غدا سألقاك هنا أو هناك أو على ضفاف الحلم كما شاءت الأقدار ولاقتنا، أرهقني حمل الحلم فألزمني النوم على جنباته علي أنعم ولو بشيء منه.

## الفصل السادس والعشرون

عناوين الكتب تُغري القراء في احتيال متناه التفاصيل، حتى الكتّاب يوارون الحقائق خلف ظلال الحروف ليبقى الحب طاهرا لا تدنّسه أعين الشّامتين...

استيقظت صباحا على وقع صوت الصبى يركض في جنبات الدار، ينشد تارة ويصيح أخرى ليملأ الجو ضجيجا بأعذار، فاستجبت لنداء الصبح بحيوية ونشاط للإعمار، وأول ما أكدته رسالة الاشراقات لخير من أشرق ظلمتي بأنوار، تغزل ومدح ودلال يتدفق حبا من نبع لطالما جاد منذ أن كان مغوار، وصفحاتك في مواقع التواصل الاجتماعي كانت دليلا من الأخيار، بذور كلمات نثرتها ورحيق صور أسلمتها فغدت محادثاتنا حقل أزهار.

اليوم فقط أستيقظ بابتسامة الحب التي أبهجت كل الأهالي، نمت سويعات لكني مرتاح تمدني قوة راحة البال، بال مشغول بالعشق في أبهى تجلياته لا نفاق ولا احتيال، كمية رهيبة من "السيروتونين" تتدفق لتفك العزلة عن أسير كاد يُغتال، ذبول وشيك لولا حضورك الذي أنقذ الموقف وارتوت بعده العجاف الطوال، ترمم الصدع وانفلق الزرع وضمد الوجع وشفيت الأحوال، وعيون الخلق تعاين الأسنان تحسُبها وهي تترصد النوال، لا أحد يهمه ما عانيته إلا تهكما وسخرية للإقلال، يتباهون بك حاجة فعناق مع ابتسامة وتودد ليتقنوا للود انتحال، غريبة أطوار الحياة تنصاع تواليا لكل ذي شأن فيلتف حوله قطيع بأقوال.

تطلعت كالعادة لمحياك فارتشفت من ألبوم الصور حبا، تدقيق في القسمات ساعة قبل مفارقة الفراش صباحا، دواء اعتدته حتى وأنت غائبة، لملمت الفراش في غرفة الضيوف وأعدت ترتيبه ليليق بضيف آخر، ثم قررت في غفلة من برد الصباح أن أستحم بماء بارد، لا أعلم أكانت نشوة محادثتك بالأمس السبب، أم هي فرحة لقاء الكتب.

هناك حيث يبدع التجار في ترتيب الكتب بتصاميم تستحي بعدها العين أن تمرر نظراتها مرور الكرام، لتُستغل الواجهات المرصعة للعناوين الكبرى، ضرورة ربحية لكن لا تضاهي الضرورة الروحية لكل عاشق، هناك يبدع الكتاب في زخرفة العناوين لتأسر

عشق القارئ، بين العنوان والمحتوى مسافة كيلومترات إن أنت اكتفيت برشفة دون أخرى، عنوان تحوطه واجهة الكتاب التي تفنن في إرفاقها ذاك الرسام أو المصمم، تناسق في الألوان والأشكال يوحي بصلة وصل لا يفهم عمقها إلا الغريب، غريب الأطوار الذي يصنع لكل حرف حكاية، فيربط بين الألوان والتصاميم والكلمات لينتج من خياله رواية، حتى الألوان بتدرجها تصوغ نصا تستعصي له الكلمات دراية، لا كل شيء يقال ليسمع أناه أو يكتب ليفهم مسعاه، هناك حتى رائحة الورق تغري عشاق القراءة، يتلذذون باستنشاقها كأنها باقة مهداة من حبيب، كأن الفرحة تستنشق كرائحة الفطور الشهي صبيحة العيد، رائحة تربطها عفوا بقهوتك الزاخرة أعشابا، بمكانك المفضل على ضفاف نهر أو شاطئ أو حديقة أو على قمة جبل، بمزاجك المتقلب الذي قد يكره كل شيء فجأة لكن يلوذ ويخلو بكتابه، يسره ما يحزنه ليواسيه بطريقته الخاصة، يربت على كتفه ويعيد ابتسامته بعبارات متراصة، يبقيه هادئا ساعات ليغوص به في عوالم الحرف.

تناولت الفطور في دقائق معدودة قبل الإخلاء، كانت فرحة اللقاء تفوق فرحة اللقمة للبقاء، تأنقت في أسود يشبهني إلى حد ما لا عنصرية ولا إطراء، لباس رياضي لا يوحي بالصفة ولا الوجهة في لغة بكماء، وتزينت بقبعة لا أظنها إلا زادت الهيأة من الغموض ارتواء، فتوجهت لمحطة القطار مهرولا كأن الموعد شارف على الانتهاء، وصلت فاقتنيت تذكرة مكنتني العبور لانتظار مقعد أو حيز للوقوف سواء، قلبت ناظريّ بين الجهتين والساعة لا أريد لأن تفوتني لقطة من مسلسل الوفاء. أخيرا حضر فتدفقت الجموع والغاية مقعد وغايتي الوصول ولو على قدم للارتقاء، وبين همسات هذا ونظرات تلك سيناريوهات أفلام بطلها الإغراء، ركزت البصر على نافذة أبتغي الهروب من زحمته لفساحة الفضاء، ومع انخفاض سرعته أراقب الوجوه المنتظرة في المحطة الصماء، فتحادثني فتاة بصوت ينساب حنان وبلغتين بليغة الإلقاء، "المحطة القادمة، محطة الدار البيضاء المسافرين"، ثم تكرر العبارة بالغة الفرنسية ليغيب الحنان ويحلّ المستعمر بكلماته

الهوجاء، هكذا مرت الرحلة التي قطعت المدينة الاقتصادية عرضا والتواء، ليحين الهبوط فسألت رجل عن العنوان فدلني بسخاء.

واصلت السير مسافة ليست بالطويلة، على ضفاف شارع "عين الذياب"، هنا حيث تقبع ذئاب بشرية تترصد ضحية، بداية من حراس السيارات لكن ليس لي اليوم سيارة لأركنها، سأركن أفكار المدينة جانبا لألتحق بالحب في الموعد المحدد.

على بعد كيلومتر تقريبا لمحت حركة ليست بالعادية، سألت راجلا عن مكان المعرض الدولي للكتاب فأشار فشكرت ودعوت ثم أكملت، زادت سرعتي وما عادت قدماي تحسان بملامستهما للأرض، شعور غريب ينتابني كأني على موعد مع الحياة، انفرجت أسارير وجهي وكشفت عن ابتسامة عريضة، الكل يرمقني بنظرات استغراب، ما باله؟ كأنه يرى ما وراء الأفق، وفي الشارع المقابل للمكان المنشود تعالت صومعة مسجد الحسن الثاني، صرح تاريخي يواري حقبة من القيل والقال، وأناس لا تهمهم إلا صور للذكرى وإن تمردت الروايات عما يقال، فالتفت إلى المكان الذي شيد فيه المعرض ووقفت للتأمل قبل اللقاء.

تقدمت خطوات من الباب الرئيسي بابتسامة الواثق فأوقفني البواب، فقال :

– هل لي بتذكرة الدخول؟

لملمت ابتسامتي واستبدلتها بنظرة استغراب وتساءلت في نفسي، أهكذا يستقبل العاشق؟ أهكذا يزف الترحاب من الحبيب؟ أوقفت لغة الروايات وأجبت الرجل بلكنة مهذبة الحرف:

– آسف ليست لدي واحدة، ولم أكن أعلم أني ملزم بواحدة...

أشار في تفهّم منقطع النظير إلى شباك التذاكر وقال:

– هناك يمكنك الحصول على واحدة..

أسرعت الخطى للمكان المعلوم ثم وقفت في طابور أنتظر بفارغ الصبر أن يحين دوري، اقتنيتها دون تردد حتى أني ما عدت أذكر ثمنها ولا شكلها، سلمتها للمكلف وانطلقت وسط الأروقة أجول بقلب مبتهج كأنها ليلة زفافه، أقرأ عناوين الأروقة وأطالع الوجوه المتباينة الألوان والملامح، حتى اللغات واللهجات أثارت انتباهي وجذبتني لملامسة حرفها، وفي غفلة مني رن الهاتف فأيقظني من حلم الحضارات إلى حلم حضرتك سيدتي، تحدثت بلكنة المعاتب :

– هارون أين أنت؟ لقد هاتفتك لمرات ولم تجب..

– آسف حبيبتي فإني اللحظة دخلت المعرض بعد صراع طويل مع المواصلات وزحمتها..

– حسنا لابأس اتصل بالأنترنيت أريد أن أراك..

أغلقت الخط دون انتظار الرد مني، وسارعت تهاتفني من برنامج آخر، لا أعلم كيف أقنع عنادها أني لا أتحمل مشاركتها اللحظة وسط زحمة الخلق لا لشيء إلا غيرة مني، كيف بي أن أسمع الحاضرين بأطيافهم وألسنتهم ومعتقداتهم صوت من أحب، كيف يرون جزء منك في غفلة منا فنسوق أعراضنا لأعينهم طوعا، كيف السبيل لملامسة الصفحات بيد والهاتف باليد الأخرى، ومحادثة البائع ومقاطعة حديثك في نفس اللحظة. علمت أن الأمر صعب للغاية، صعب محادثتك وسط زحمة الأعين، وصعب إقناعك وسط زحمة حججك العنيدة.

قررت الإجابة على اتصالك ومحاولة إقناعك ولو على بسمتك، انتقلت بين الأرجاء فلمحت مكانا خال فقصدته، عدلت من ملامحي ووقفتي حتى يكون الرد حازما، فبدأتها

تغزلا قبل الخوض:

- أهلا حلوتي، تبدين مشرقة كعادتك..

- أهلا شكرا جزيلا هارون.. أين تقف اللحظة؟

- قررت اللجوء لهذا الركن حتى أحادثك بارتياح..

- أريد أن أرافقك في جولتك.

- ذلك لا يمكن، فالمكان مزدحم لدرجة لا تتصور..

- الأمر لا يهمني المهم أن أرافقك في جولتك..

- لن أستطيع فالأعين تترصد كل غريب، فما بالك بشاشة هاتف بعيون عسلية.. أعتذر فالأمر مستحيل.

أغلقت الاتصال بشكل تأكد معه أني في مأزق حقيقي، كتبت لها أسطرا أحاول فيها شرح موقفي ثم اعتذرت..

## الفصل السابع والعشرون

القرّاء بالجملة، يتباهون في كل حين بصور يلتقطونها مع أغلفة الكتب التي يقتنونها مرة مع قهوة وأخرى مع قطرات مطر.. فلا احتسوا القهوة ولا قرأوا الكتاب فقط ينتظرون كمّ التعليقات...

انطلقت في جولة محفوفة بالمخاطر، امتزجت المشاعر بين فرحة لم تكتمل، وحزن دفين يلفه الخوف من كل جوانبه، خوف من ضياعك ولتوي استعدت ابتسامتك، خوفا مما قرّرته وأنا أخطو بين الرواق والرواق، أقلب الصفحات ولا وجود لصفحتك، نهاية استحال معها أخذ ترياق مضاد للأزمات العاطفية، كيف السبيل إلى نيل رضاك بعد هكذا زعل؟ لامس القلب غضبتك الأخيرة فشغله التفكير في الحل أكثر عن عناوين الكتب التي جاء لأجلها، لم تعد هناك شهية للقراءة لكن هناك شهية لرشق الباعة بالأوراق النقدية، رشق قد يخفف من ألم صرخة الضياع، تائه أنا بين تفاصيلك الصغيرة، لا يقوى القلب على تحمل احمرار ملامحك خجلا، فكيف إن احمرت غضبا؟ أعلم يقينا أنني في موقف لا أحسد عليه لكنه يغري عيون الكتاب من حولي.

أخرجت قائمة بأسماء الكتب التي قررت اقتناءها، بدأت أسأل الباعة عن هذا العنوان وذاك في عجلة من أمري، أكتفي أحيانا بمدّ القائمة للبائع، يخرج ما برفه من كتب وأخرج ما بجيبي من نقود دون مساومة، حتى الباقي أتركه في دهشة منه، لا أثر للثراء باد على هيأتي ولا حتى المحيا يوحي بنبل شخصيتي، وما الهوس كفيل ببعثرة نقودي بهذا الشكل، لكن هي سهام الألم مغروسة في قلبي فعطلت الحواس، هو حزن سابق لأوانه على حب في الإنعاش، هي اللامبالاة جعلت من كل ما سواك نزوة تستوجب الترك، تركت كل ما جئت لأجله وما أنا مسافر له لعلي أظفر منك بقبول.

ألملم الكتب في شكل مثير كأنه الزاد لسفر طويل، كتاب من هنا وآخر من هناك تختلف العناوين لكن الوجهة واحدة، وصايا من هنا وهناك، من قراء لا أحسبهم يشبهونني إلى حد ما لكن هي المطالعة، تغري كل عاشق للحرف ومعانيه، تفتح الباب على مصراعيه لتستقبل هواتها بالأحضان، تداعب بشكل مغر أفكارهم، وتسقي من حوضها المنعم

معجمهم، وفي كل مرة تغوص بهم إلى أعماق الحرف لتنير ظلمتهم، قد يروي شيء من ظمأهم هذا الكتاب أو ذاك، كما قد يسيل لعابهم كتاب لكاتب مهما كان موضوع كتابه الجديد، يتهافت على اقتناءه لا يهم الثمن بقدر ما يهمه حب التملك، مجموعة جديدة انضافت إلى خزانتي، أرجوا أن يشملها الرف بالعناية الكافية، وأن يحفظها الشغف من هجوم حبات الغبار.

خرجت من المعرض بعد أن أفرغت جيوبي مما ادخرته لهكذا يوم، ثم خرجت مسرع الخطى، أبحث عن حافلة تقلني للمكان الذي تركت فيه متاعي، لا حاجة لبقائي اللحظة في هذه المدينة، أحسبها النحس الذي لازم الحب المكلوم، فلا هي أنصفتني بداية، ولا رحمت ضعفي وانتكاستي ختاما.

رفعت يدي لكل عربة مارة أمامي لا تهمني المظاهر ولا السرعات، ركبت التي وقفت وخبرته الوجهة دون زيادات، على الطريق أهاتفك لكن تغافلت عمدا كل الرنات، وراسلت توسلا بقلب عاشق خط الاعتذار بشتى العبارات، عاودت الكرة تواليا بلا كلل ولا ملل لعل قلبك يلين حين تسترجع الذكريات، إلى أن خبرني السائق انزل وكفاك ترهات، نزلت مادا النقود ليده مودعا بكلمات.

توجهت للبيت مطرقا لا أزحزح ناظري عن شاشة الهاتف، وأصابعي المرتعشة تخط بين الحين والآخر كلمات، وبين الرسالة والرسالة اتصال توالت فيه الدعوات، أماني الرد كانت الحلم الذي عجل العبرات، استسلمت أخيرا فتناولت ما أسد به رمقي بعد يوم طويل، بعدها أدركت أنه لا مناصة من الرحيل، فلملمت أغراضي وفي الصباح الباكر قصدت المحطة، محطة علمت بعدها أنها الأخيرة إلى قلبك، لا الاستعطاف نفع ولا الحيل أجدت ولا الالحاح أقنع، سلمت المتاع لحامله وأغمضت بحثا عن النوم الذي سكنت كيانه منذ السنين.

تحركت الحافلة بعد لحظات كانت كفيلة بإرسال رسالة على مرأى من كل البشر، لا أبالي أتجيبين الآن أم غدا المهم أني قابع أنتظر تحت انتقاد العقل الذي تقاطر كالمطر، التفت يمنة ويسرة أقلب ناظري بين الأعين أبلغهم الخبر؟ عجب من لاحظ طريقة مسك الهاتف كمن يحاول مواراة الخطر، أغلقت هاتفي لا لي بعد هذا غرض به ولا حاجة لكل من سيهاتف وقلبك ما غفر، أسندت الكرسي وأعتمت المكان لأزيد عتمة رحيلك فأرقد بكدر، وأسدلت طاقية رأسي على عيني فلا سمع ولا نظر، وعقدت العزم ألا أستيقظ حتى نهاية الممر.

وصلت المدينة غارقا في سبات عميق، ما أيقظني إلا حامل المتاع، بعدما حملت حقيبتي شغلت الهاتف علي ألقاك، لا لقاءك استحال حقيقة ولا الرد أخذ من وقتك دقيقة، زادت تجاعيد محياي وأنا عابر لشوارع مدينتي الكئيبة، أحكمت إسدال ستائري برسم تعابير الغضب على قسمات وجهي، وانطلقت بخطى متسارعة كل ما أرجوه هو ألا ألقى أحدا يزيد الجو كآبة.

كان لقاء الأهل بابتسامة خفيفة وعناق لخص إلزامية مراسيم العودة، ثم توجهت إلى غرفتي مقررا ألا أراسلك بعدها، لا أعلم أكرامة تفطنت بعد كل هذا أم هو ادعاء كسابقيه، خلعت ثوبي ومعه ثوب إذلالك لي، واتجهت إلى الحمام حتى أتطهر مما خلفه السفر إليك، علّ بعضا منك يمحى بصابون وماء، علّ طيفك يريح العقل الذي لازم اللوم لسنوات، علّ القلب يستوعب أن الحلم تلاشى بعد محاولات أذلت الكرامة، إطلالة أخيرة ولا جواب فيأس من وهم قديم تجدد، فأودعت سر لقائك خزائني وأقفلت ترتيباتي لعرس حضرته، كتابات وأوراق أحكمت قبضتي على شريانها، أريده موتا لكن سلة المهملات كانت أرحم بتجاعيدها.

## الفصل الثامن والعشرون

العبرة بالخواتيم، تنتهي العلاقات لتتشرّد الكلمات بين وعود قُطعت، وأشعار غُزلت، وأحلام نُسجت...

انتهت تفاصيل العطلة الكئيبة أخيرا، وتحاملت على نفسي وحرّضتها ألا تخوض في سيرتك، ووعدت الجميع أني الآن منتصر لكرامتي فوليت وجهي غير وجهتك، وطلبتها فرصة وخير عون على هجر تفاصيل عالمك، فلملمت متاعي في الليلة الظلماء أطلب ود الفراق عن غرفتك، غرفة رتبتها كما ألهمتِ فغدت الرتوشات تنطق من عفوها اسمك وتنشد أغنيتك، رمقتها بابتسامة عريضة أرادت أن تخفي الحزن عن نصرك، أرادت أن تنتفض ثائرة للكرامة فلوّحت لغدرك بثغرها الزّائف، أحكمتِ الاطباق على الألم بأنيابها التي لطالما برّدتها برقّتك، فتصلبت الشفتان في موقف جريء الكل علم حقيقتك، تداعت كل حواسي مرضا بهجرك فقرّرت هجر الذّل، أقامت مأتم للماضي بتفاصيله الصغيرة لتدفنه برزمتك، أحاطت المدفن بسور عريض طويل كأنها تتحصّن من غزو ربما يعود.

المشاعر وحدها لا تموت بل تتجذر فينا تتحين القطرة لتنبت غصنا، تتحين هفوة من العقل الحامي لعرين الفؤاد لتتسلل لصورك القديمة، وإن حالفها الحظ تنعم بدقائق تتغنى فيها بكلمات المحادثات الزّائلة، تقرأ فتقرأ لتستوقفها العبارات الرّقراقة في بحر الحب، تتذوّقها تواليا لتنتعش مسامات الغصن الميّة اليابس، فينبثق برعم الألم الجديد القديم، لتغدو النّشوة لوما وتعمّ الأحزان معازف النّسيان، تتغافل الطّعم ليذهب عقلك وتستمر أناملك بالنقر على زرّ المتابعة، عبارة فأخرى فأخرى لتسقط في فخ الحنين للزّمن الجميل الزّائف، عبرة فأخرى فأخرى ليثور الحب الخامد ويطلق شراراته، ثم تأتيك الرّغبة الجامحة من حيث لا تدري لتعيد المحاولة مرة بل مرات.

التفتّ عن مناد ينادي سلفا احذر بلافتات وهتافات، احذر الجحر فقد لُدغتَ منه لدغة بل لدغات، احذر من دمّر مزاجك الهشّ تواليا دون كلل، احذر من أحبك فجأة وهجرك فجأة، احذر من تدلّلت لإرضائه فأذاك وما ارتضاك، احذر من قال لم أعد

أحبك بعدما استبقك وقال أحبك، تعدّدت تحذيراته وتعالت صيحاته، ولوّح من بعيد بكلتا يديه، وغيّر في كل انتباهة نبرته، بل حتى القسمات تقاسمت معه اللوم وعاتبت بتجليّاتها ما أنوي فعله.

حذّر من حذّر وقد أعذر من أنذر حتى صمتَ الفتور، لكن كل ما قيل في الحب أستحضره حتى أبقيك واقفة ولا مرور، في شارع الحب والحبّ أعمى عن كل هذه التوافه من السطور، الحب تشبّث إلى أن تتقطّع حبال الوصل بزيجة لا خير فيها ولا سعيها مبرور، هي النّهاية التي تعلّمك أن الطريق أُقفل والسّدّ عال ولا مجال للعبور، وغيرها فكل الطّرق تؤدّي إلى قلبك ولا مجال للاستسلام وليس عزمي بغرور، سأكتب لك اليوم وغدا وكلما سنحت الفرصة لمحادثتك ولو بمقدار عشور، سأكتب ما يملى عليّ وما يتغنى به المحبّون في الباحات وخلف كل سور، سأبقى وفيّا لعادتي إلى أن تغلقي كل باب موارب وتسدّي كل الثّغور.

عاد الحال لسابقه، بين جبال الأطلس قابع لا أتحمل تفاصيل العالم الخارجي، بل الأحرى هي من لا تتحمّل وجودي، لا شبكة تغريك ولا مقهى بين أحضانه يأويك، لا هرج ولا مرج إلا حناجر الصبية تتعالى بآيات من داخل المسجد الصغير، هي أوقات قلائل قبل أن تعمّ فوضى السكون أرجاء الدّوار، بعد صلاة العشاء الكل يخلد للنوم، الكل يأوي إلى فراشه لأنه يعلم أنه مستيقظ لا محالة في الساعات الأولى من بزوغ فجر يوم جديد، هدوء قد تسمع بعده دبيب نملة أو مثيلاتها من الحشرات على حصيرك، ليليه عواء ذئب قادم من بعيد يستنفر كلبا لا حول له ولا قوة إلا نباح مزعج يضطرك للخروج لاسكاته، فتجد الظلام الحالك أمامك، لا بيتا مستيقظا إلّاك، نورك أزعج ظلمة الدّوار وحال بين وضوح الرؤية لسمائه الزرقاء.

خير ما أتّقي به شرّ التفكير في تفاصيلك كتاب من رفّ ملأته لملل هذه اللّحظة

العابرة، حملته وعلى يميني نصبت لكأس الشّاي مقعدا أتحسسه بعد سطور، أتذوّق الحرف تلو الآخر لأجد نكهتك العابقة بين ثناياه، أتغافل في كل حدث خطواتك المتسللة لداري، أحرّك رأسي نفيا لكل تلويح من ثغرك الباسم، أقرأ السّطر مرّة ومرّتين لأتذكر الحدث وأستدرك ما فات من المحدّث، أقرأ بصوت مسموع أحاول التّركيز، لكنّ الطّيف يتراقص عمدا على أوتار الفواصل، يحدّثني تارة عن مشاعر الحدث ليخلطها بمشاعر الحدث الأعظم في علاقتنا، يمازج بين اللونين فتتعتّم الرؤية تلقاء ولا يُرى من السّطر إلا سطرك، فيُطبق على الرواية بأحداثها ليُغلَق الكتاب تلقاء في حضرتك، ألتفت لكأسي البارد أتذوق ما بقي منه ليردّ في برود، أالآن تذّكّرتني بعدما فات الأوان؟ أالآن تريد لريقك بلّا كلّا ولتعد لحبيبك العنيد...

لا مجال لاستغفال السّارد للبحث عن شخصيات جديدة، أنت الكاتب لكلّ حرف مرّ من هنا ملتحفا بكلمات أو متخفّيا خلف عبارات بمعانيه العتيدة، حتّى وإن أبدعت في استخدام الألوان لتُجمّل قسماته يبقى المحيّا صامدا بجبهته العريضة، يلازمك في كلّ التفاتة كأنك نصّبته ظلّا لقامتك الشّريدة، ما تكاد تنفرج أسارير ابتسامتك الذّابلة إلاّ استوقفتها لحظة من لحظات الحزن على الفقيدة، فقدتك فكانت كلّ منحة بعدك مجرّد نسمة في صيفي الحارّ المتّقد في قلب تيبّس ليغدو جريدة، لا بعدك حسن في كوكبي ولا العيش يحلو إلا في وصيدة، هناك في منأى عن أعين الحواري حيث الخِلّ لا يفهمك لكن العلاقة وطيدة، هناك حيث الوفاء ترسّخ عفوا في قلوب واظبت على بيعة مالكها في خطوة وتيدة، هناك البساطة عنونت مقالاتها في كلّ الصّفحات بقوانين رشيدة، أسلمت المتاع لخيمتي وثبّتّ الوتد بقبضتي وأطلقت العنان لقطيع كلماتي غير آبه بما ستكتبه عنّي الجريدة، جريدتك وإن هَجت سيظلّ قلمي بين رثاء لضياعك ومدح للقائك فيّاضا في كلّ قصيدة.

توالت رسائل الطّعم تترصد في كل حين مناسبة للقائك على صفحات الأثير، تُكتب

بعناية فائقة لتشملها مراجعات ويحكم في الضّغط على زرّ الارسال تقرير، تُختار لها الكلمات بدقّة والمعاني تتوارى خلف الحروف في حياء وعفة متأنقة بالحرير، لا تجريح ولا إيحاءات كلّها في سبيل كلماتك التي تغيب وإن وصلت فبالتّقتير، المناسبات تعوّدتك عفوا فصرتِ تنعمين بالسّبق في صفحات التّحرير، مسألة عودتك كانت بالنّسبة لي أملا سألقاه على ضفاف نهر الحبّ والصّفح لا يحتاج بعد العناق تبرير، ستُكتب شهادات العابرين يوما وستُزفّ الأفراح إلى بابك فتعهدينها بالبسمات على ألحان الخرير، ستضاء الشّموع في اللّيلة المعهودة وستُنثر الورود لتستقبل خطواتك اتّجاه الأسير.

يومها في ليلة ظلماء موحشة اختفت خلالها القسمات، قرّرت معانقة الجرأة علّها تنفع يوم ما نفعتني حيل ولا تلميحات، قرّرت الافصاح عفوا عن المضمون الملموم وسط الرّسائل والكلمات، قرّرت أن أكتب في سطر معاناة جرح ما ضمّدته السّنوات، أسلمت الأنامل للوحة المفاتيح فتعالى صوت الأزرار كأنها القطرات، أمطرت ما أحسّه صدقا منذ غادرتِني إلى خواتم اللّقطات، خبّرتك الحقائق بشفافيّة البوح الّتي ما عاهدتني بها حتّى الثّمالة وسط الخمّارات، لم أعر للعواقب بالا إلّا أنّ الأمل ألزمني النّزول عند رغبة العَبرات، ما ظلّ حبيس القلب المكلوم بل ضلّ الطّريق لقلبك وتاه عنه فنّ مداعبة العِبارات، ألم يحن موعد اللّقاء بمقهى الحب؟ لنحتسي كأسا بمقبّلات، ألم يحنّ قلبك لعناق مطوّل؟ بعد السلام لتخلُد الذّكريات، ألم يكن وعدا حقّا أن أسافر لأفاجئك؟ على باب بيتك أو صدفة في الطّرقات، ألم نكتفي بعدُ من الهجر؟ أم أن الكبرياء عرّج بنا لمسالك المنحدرات، كفانا نزيفا فإنْ ألِفته فما استطعت من البداية الوقوف بعده ولو للحظات.

انتظرت وصولك المعتاد في آخر النهار بعد غروبها لتشرقي كما البدايات، تسلّلت لمحادثتك بسلام عمّ القلب بعدما أزاح همّ البوح، النّصّ معدّ عقِبته مراجعات ومراجعات، لا يهمّ ردّك وإن كنت متوقعه لكن الأمل باق ما بقيت النّسمات، لازالت نسمات الماضي تتفقدني في حاضر الهجر لتؤنس وحشتي، لازال الخيط الرفيع الذي أبقيته

لا أدري كيف ومتى؟ لكنه متين حدّ حمل همّ العودة، ستعود.. هكذا يخبرني كأنه البشير يلقي بظلاله على أرض قاحلة لتنشقّ أساريرها بركات.

تشجعت وسألتك عن الحال والأحوال والأهل وحتى بعض المخلّفات، مخلّفات صراع الماض القريب لأتحسّس الجراح وعمقها، أردت التّمهيد لبداية صافية بلا عثرات، تحرّرت أسرى الشوائب وما عاد يلهيك عن المضيّ قدما في الحياة لا المشاكل التي جمعتنا وأظنّ حتى المسرّات، الكلّ تركتِه خلفك في سلّة النّسيان ولا أشكّ في ذلك فإنك متميّزة عن الأخريات، لا أعلم لك كيفا ولا كمّا لما تضمرينه لكنّ الاحساس ما خاب وإن كان ما أصاب.

بعد مقدّمات العادات التي تعوّدتها وكلّ الخلق أدركت أنّ وقت النّص الطويل قد حان، لكنّ للتّمهيد.. وحتى أجعل بالك بكامله منتصبا لمعرفة القادم بدأت بعبارة للفت الانتباه:

– أريد أن أصارحك بأمر إن لم يكن هناك مانع..

– مرحبا، ما الأمر؟

أخذت نفسا عميقا كأني سأغوص للبحث عن النص في أعماق البحر، ارتبكت حتّى أنّي نسيت موضِعه وأنا أحمِله بين يديّ المرتجفتين، خوف من الرّفض لكنّه أهون من كبت حقيقة المشاعر الملتهبة، سأفوّض الأمر للأزرار وليكن ما يكن:

– حقيقة الأمر أنّي متعلّق بك لدرجة الهوس، لا أنام ليلي إلا وقد عرّجت على المحادثات القديمة، أترشف نظرات من محيّاك المشرق لأبتسم لابتسامتك وأحاكي قسماتك، ثم أتلذّذ بصوتك الناعم لحظات لأمزج الصوت بالصورة، أنام على وقع حرفك لأستيقظ على نفس المنوال إلّم أجد رسالة منك، حتى في سنوات الفراق ما كنت

أسأم من عادة اكتسبتها عفوا بعدك، لا الملل يمنعني الطّقس ولا الهجر يزيد النّقص، لا زلت أستحضر الحلو من أيّامنا محادثات وكلمات وتغزّل ودلع واهتمام، كلها تبقيني متيقنا أنه لا فراق للأحبة مهما توالت الأزمات، سنعود يوما لسابق العهد وتزهر الذّابلات كأنها ما أصابها سقم يوما، ستنضب الأرض حبا كأنّها ما جفّت يوما، فقط عفو وتنازل واستحضار للأسمى، والأسمى ما أكنّه لك من حب ألزمني البقاء وفيّا للعهد الذي قطعناه، تهشمت الوعود وانفطرت الأفئدة وتنازعت الكلمات لكن لابد للوصال أن يلتئم، لابد للحب أن ينتصر.

راجعت النص ونقّحته وجمّلته ما استطعت حتى يلين قلبك، وضغطت زرّ الإرسال دون اكتراث للعواقب، لا سبيل للعودة الآن، الجمل بما حمل أهديتكيه، فإمّا نحرا وإمّا آية نعود على هودجه للزمن الجميل، نعود للخطط التي رسمت، وللأحلام التي عنونت، فقط اغفري وليكن القادم كما شئت.

بعد هنيهة لاحت تعاليم كتابتك لشيء على أعتاب نافذة المحادثة، أسدلت ستارها متوقعا أن النص سيكون مطولا يحاكي نصي، وإن اختلفت العبارات فالظن كان بك حسنا، كنت أتوقعها جريدة تضمّ بنودا جديدة للعلاقة، مهما تعددت سأحاول الموافقة عليها لإبقائك، المهم أن ينتصر الحب في النّهاية.

في لمح البصر رن الهاتف ووصلت رسالتك، ما توقعت ردّا سريعا لنصّي المطوّل، زاد قلقي وتسارعت دقّات قلبي وتدفّق الدم في الشّرايين ليعلن عهدا جديدا، أهو الموت تأكّد منك طبيبتي؟ أم أنّه استئصال للورم الخبيث الذي عمّ حبّي لك؟ الكلّ يترقّب مضمون الرّسالة، فتحت الهاتف برويّة كأنّه ملفوف بورق هديّة، لا أعلم أمفاجأة تسرّ القلب؟ أم هي صدمة كما الخوالي؟

رسالة جامعة مانعة كافية، لا أسئلة بعدها ولا استفسار ولا تحليل، كانت كرصاصة

الرّحمة التي انتظرتها، لم أتوقّعها شافية لكن مرارة الدواء أجزمت بنجاعته، اختصرت الموضوع دون مقدمات:

– تزوّجت..

أجبتك ببرودة الجمر الذي عانقه البلل، أجبتك بانتفاضة مُقعد أحكمه الشّلل، أجبتك بعين دامعة منعها الثّغر الباسم من ذرف دموع الفشل، أجبتك منكسرا أخفي انكساري عن المقل:

– مبروك زواجك وأدام الله لك الأفراح والمسرّات آمين.

– شكرا جزيلا، ولك بالمثل..

أسدلت ستار المسرح، بعد تحيّة الجمهور، لم يكن لنا جمهور سوى الكلمات المحفوظة على نوافذ المحادثات، لم ينشر خبر ارتباطنا فكان بمثابة وجع مخفّف، لا مجال لإبقاء المحادثات محفوظة الآن، الكلمات التي سبق ووظّفت في التّغزل بي ستوظّف للتّغزل به، هي نفسها العبارات قد لا تتغيّر حروفها، بل حتّى نبرة الصّوت نفسها ستستعمل، نفس القسمات المنتقاة ساعة الأفراح والأتراح، حتّى الكلمات الّتي علّمتُك في فن الرّد ستستغلّ لاحتوائه، وقس على ذلك وعود الخُلد لحب لن يموت وإن متّ، وما العيش بعدك إلا جسد بلا روح...

لا يهم كيف سيبدو الأمر بعد نسخ النّص نفسه لاستدراج ضحية أخرى، ولا يهم من الضحية الّتي تقمّصت دور الوفاء لتكتب معاتبة الآخر، المهمّ أنها مستمرّة وإن خلدت الذكريات في أذهاننا بحلوها ومرها، المهمّ ألّا نعيش على أنقاض الذّكرى فنتناسى أنفسنا ونُدفن أحياء في دروبها، المهم أن نعلم يقينا أنه مهما خطّطنا فلن ننجح إلا بإرادة المولى عز زجل، ولنؤمن أن ما كتب لنا الله خير مما أردناه وتمسّكنا به حدّ الهوس، يقول الله عزّ

وجلّ:{ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون } سورة البقرة (الآية ٢١٦).

فكّر مليّا قبل أن تسخط لما أصابك، وضع نصب عينيك قوله صلى الله عليه وسلم:" عجيب أمر المؤمن، كلّ أمره خير، وما كان ذلك لغير المؤمن، إذا أصابته سرّاء شكر فكان خيرا له، وإذا أُصابته ضرّاء صبر فكان خيرا له".

ودّعتها حقّا دون التفات فما كانت لي وما كنت لها، مسحت ما قيل وما سُطّر وما صُوّر، حفظا لماء الوجه، وتوبة من حبّ ما صدق، وإن لمحتها مارّة هنا أو هناك فسلام عليها وعلى الولد العاقّ لما سبق، وسلام على العهد وما اختلق، وعذرا للباقيات على مقارنة الثّمار وما حُرق.

**تمت**

**٢٠٢٢/١٢/٠٢**

**سليمان خلوفي**